محمد جواد مغنية

الوضع الحاضر في

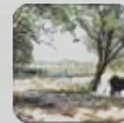
جبل عامل

في مطلع الاستقلال

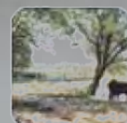
بداية القهر والحرمان

دار الجواد
ص. ب ٥٨١٣ - ١٤
تلفون : ٣٠٠٢٤٨
بيروت - لبنان

دار التيار الجديد
بيروت . لبنان
ص. ب ١٤ـ٥٨١٣







الطبعة الثانية
١٤٠٤ ـ ١٩٨٤م

رحلة القهر والحرمان

« الوضع الحاضر في جبل عامل » أول كتاب نشره العالم المجاهد محمد جواد مغنية رحمه الله، منذ حوالي أربعين سنة مضت، ـ ألفه سنة ١٩٤٥ م وطبعه في ١٩٤٧ م ـ. وللعالم الراحل أعمال أخرى كتبت قبل « الوضع الحاضر في جبل عامل » ولم تنشر بعد، ودار الجواد تعد القارىء الكريم بأنها ستقدم له بمعونة الله هذه المؤلفات في زمن قريب.

وأخيراً، بعد أن ألحّ الأصدقاء والقرّاء، تعيد دار الجواد نشر هذا الكتاب، لكي يتسنّى للقارىء ولمن يهمه الأمر، أن يتعرّف على جبل عامل منذ أربعين سنة خلت، ولكي يرافق هذا الجبل في مسيرة القهر والتقصير، والتي ما زالت مستمرة حتى اليوم.

« الوضع الحاضر في جبل عامل » كتاب يصف بمرارة واقع الجنوب التعيس، والمؤلف محمد جواد مغنية جريء في صراحته الناطقة بالأمانة للحقيقة، وهو كعادته صاحب في ثورته صخب الحق من أجل الحق. وصاحب الكتاب قد يبدو قاسياً من خلال الصفحات وربما متطرفاً في بعض الكلمات، ولكنه لا شك صادقاً في رأيه، وحتماً أقل قساوة وتطرفاً من الواقع في واقعه ومن الحقيقة في حقيقتها.

عندما كتب محمد جواد مغنية « الوضع الحاضر في جبل عامل » في أواسط الأربعينات من هذا القرن، كان الاقطاع السياسي أمراء الحكم في لبنان، يحرمون الجنوب حقوقه المشروعة، ويتسلطون حتى على الأجنّة في أرحام الأمهات. ومع هذا لم يخف محمد جواد مغنية، وشهر سيفه ـ قلمه ـ في وجه النظام الجائر، وأطلق صوته الداوي ضد زعامات النفاق والفساد. فعل ذلك محمد جواد مغنية بمفرده دون معين أو نصير ـ إلاّ الله ـ وما زال على فعلته هذه حتى آخر يوم في حياته، ضارباً عرض الحائط كل محاولات الترغيب والترهيب لأجل احتوائه وكسر قلمه وخنق صوته.

لم يأت محمد جواد مغنية بشيء جديد لقد عمل بعلمه ودينه، وفعل بكلمة الله تعالى وبسيرة رسوله الاعظم (ص)، واقتدى بتعاليم اهل البيت عليهم السلام.

واذ تعيد دار الجواد نشر "الوضع الحاضر في جبل عامل" والجنوب على اهبة الثورة الشاملة ضد المحتل الصهيوني. تأمل الدار ان تكون هذه الثورة بمثابة "الجهاد المفروض وعودة العرب وغير العرب الى الاسلام والاخذ به طريقا وحيدا للوصول الى النصر المؤكد على امريكا واسرائيل قوى الطغيّ والعدوان والهيمنة على الشعوب المستضعفة.

دار الجواد

١٩٨٣/١١/١١

الاهداء

الى المهاجر الطموح الذي ترك بلاده الضيقة، باحثاً عن محيط يسع آفاق نشاطه.

الى المغترب النائي الذي يستنجد به المقيم القريب في مهماته فينجده.

الى القوة الفعالة التي ساهمت في جميع نواحي الاصلاح في الوطن.

الى العنصر الذي لم تدنسه الحزبية الطامعة

الى الفئة المتحررة من كل قيد تأباه الحرية وترفضه الانسانية ولا يقره الدين الحنيف.

اهدي هذه الصور الصادقة.

محمد جواد مغنية



بسم الله الرحمن الرحيم

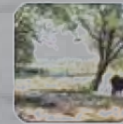
وله الحمد والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه الصالحين

بين يدي كتابي

وضعت هذا الكتاب لأنبه الأفكار، الى معالجة الأدواء التي يقاسيها جبل عامل، وإن زعم فريق من العامليين أنها ضربة لازمة فرضها الله علينا قسراً واقتدارا!

ودرست سير العلماء، والزعماء، والشباب، والمهاجرين، لأن هذه العناصر الأربعة، مصدر الأفكار والحركات الاجتماعية، وهؤلاء وحدهم الذين يمكن الوصول عن طريقهم إلى حل المشكلات، إذا ساهموا جميعاً في المدافعة عن الحق، وتعاونوا على نصرته واحيائه.

إن هذه الغاية التي توخيتها دون غيرها ألجأتني إلى التصريح وترك المجاملة والمداراة، فإذا انتقدت وأخطأت



فبهذا الدافع، لا بقصد التشهير والانتقام، لأن الخوف والتقية في مثل هذا المقام، يدعان الإنسان يسير في آخر القافلة، تنهشه الكلاب، وتمزقه الذئاب، ومن جامل عند الزحام، وطأته الأقدام..

لقد حرمنا الجبن والحياء، فضيلة الجهاد والنضال. وكانا السبب الأول في ضياع حقوقنا المقدسة، وفشلنا المزري عند كل تجربة ومحاولة.

وحيث أن هذا الكتاب هو أول ما كتب في هذا الموضوع الخاص جاء شبيهاً بالمرحلة الأولى لإنشاء السير وابتداء العمل، وهذا عذري أقدمه لقارئي الكريم إذا وجد مني ذهولاً عن بعض الجهات أو نقصاً في الشرح والتفصيل في بعضها.

وخوفاً من تهويش المتحزبين من ذوي الاغراض وتمويه من تجرحه الحقائق فيذهب إلى أني أناصر فئة دون فئة أو شخصاً دون شخص، أرغب إلى من يسمع شيئاً من ذلك، ان يستقرىء أقوالي ويتتبعها جملة جملة، ثم يحكم علي بما يوحي إليه ضميره، ولا حجة لي فيما يقضي به عليّ بعد هذا المنطق السديد، وما توفيقي إلا بالله.

جبل عَامل والزعماء

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا﴾
﴿الله والرسول وتخونوا﴾
﴿أماناتكم وأنتم تعلمون﴾

جبل عامل والزعماء

جرت العادة حتى يومنا هذا أن يكون الزعيم في جبل عامل نائباً في البرلمان أو رئيس لكتلة نيابية وخاصة في سنوات الأربعينات والخمسينات. والقليل من زعماء جبل عامل من شذ عن هذا التقليد، ومحمد جواد مغنية في مقاله هذا لا يفرق بين الزعيم والنائب لأنه يقصد بهذين الصنفين الاقطاع السياسي.

الناشر

لست أعني بالزعماء بعضا دون بعض، فإني لا أستثني من أحكامي الآتية واحداً منهم، إذ لم أر زعيماً قضى دورة نيابية كريمة فقام بواجبه كاملاً على الوجه الذي يطلب منه.

أقدم هذه الجملة بين يدي قارئي، حذراً من التضليل، وتمويه المتحزبين، بصرف كلامي إلى غير وجهه، وتفسيره حسب الاهواء والأغراض.



كانت الرعية في ذمة الراعي، يوم كان التركي والفرنسي.. أما اليوم حيث لا هذا ولا ذاك، فقد أصبح الراعي في ذمة الرعية: فهي مسؤولة عنه قبل أن يكون مسؤولاً عنها.

كنا في عهد الاستعمار، وعهد الانتداب، نسير وفقاً لارادة حاكم، لا نملك لأنفسنا معه ضراً ولا نفعا، فلا وجود للشخصية الفردية، ولا أثر للجموع وإن عدوا بالملايين. ومن جابه الحاكم، بنقد ما يقع في أعماله، من جور واعتساف، فجزاؤه القتل أو السجن أو النفي فسبيل السلامة هي الصمت، وكمّ الأفواه والاستسلام للظلم والطغيان. أما اليوم فعهدنا عهد الحرية والاستقلال الذي جاء ثمرة طيبة للحرب العالمية الثانية.

تختلف قوانين الأمم المستقلة، باختلاف طبعها ووضعها وأخلاقها وعاداتها. ولكنها تتحد بصورة عامة في الأساس والمظهر، فأساسها الحرية، ومظهرها ارادة الشعب، فلكل انسان صغيراً كان أم كبيراً أن ينادي غير هياب بكل ما يحس ويشعر، فيخطب، ويكتب، وينشر بملء الحرية، وليس لأية سلطة أن تعاقبه، ولا لأحد أن يعاتبه ما دام إبداء رأيه لا يخل بالنظام، ولا يمس الصالح العام بسوء. ولكل مواطن

أن يختار النائب ـ القائد الذي يشاء، وللنائب الخيار في تعيين الرئيس الأول للبلاد، وله أن يمنح الثقة لهذه الوزارة، ويمنعها عن تلك، ويقر تشريع هذه المادة أو يرفضها.

فالرعية مصدر النيابة، والنيابة مصدر الرئاسة، والوزارة والتشريع، فالراعي إذن يمثل الرأي العام، ويقوم على مصلحة البلاد كافة من دون فرق بين الشمال والجنوب، والقريب والبعيد، فهو لغيره قبل نفسه، ولأمته قبل ارحامه وولده، ولوطنه قبل طائفته وبلده، فإذا حابى الرئيس وخان، فعلى النائب حسابه، والمناداة بإسقاطه وخيانته، وإذا سكت النائب لهوى في نفسه، او قصور في حجته او ضعف في عزيمته، كان على الرعية الواعية أن تتقاضى الحساب مع النائب، وتؤاخذه على خيانته واهماله..

فالراعي المنفذ مسؤول أمام النائب المشرّع، وهذا مسؤول أمام الأمة. هذه حقيقة يجب أن يعرفها كل لبناني، وإن لم يدركها إلا قليل.

أما منطق الجموع فهو: (الأرض ومن عليها للملك!) (العبد وما ملكت يداه، في قبضة سيده ومولاه!!)

جهل وتيه وعماء!! ضلال في ضلال، أصبح عقيدة

راسخة، في نفوس العاملين، لطول عهدهم بالجور والعسف!! فيا لله للفقير الجاهل المريض...

السكوت جناية:

وبعد فمن هو المسؤول عن الجناية الكبرى. جناية السكوت وعدم الجهر بالحق الذي يجب إعلانه، كما تجب الدعوة الى الصلاة لأنه من خير الأعمال، وأظهر أنواع الفلاح. من المسؤول؟ العالم أم الشباب، أم النائب؟ ولست أعني بالعالم، من كوّر العمة وأطلق اللحية. فإن في المعممين الملتحين، الضعيف بفطرته، القاصر باستعداده. وفيهم المنعزل الذي لم يتصل بالحياة الاجتماعية فلم يقرأ صحيفة ولم يفتح كتابا قديما ولا حديثا، ولا عرف من أخلاق الناس قليلا ولا كثيرا، سوى أنهم يمنعون الخمس والزكاة!! إن شأن هؤلاء، كشأن أهل القرية الذين يعاشرهم صباحا ومساء، لا يمتازون عنهم إلا بصنع الشاي، وترديد (زين أغاتي). والعارف منهم رجلان: رجل إتكالي ضعيف النفس، قد رضي من الحياة، أن يعيش تبعاً لغيره، فاتخذ من النائب وليا لنعمته! وأصبح داعيا له! يبشر بكرمه ومقدرته.. ورجل مذبذب، ليست له نية صادقة، ولا عزم ثابت، ولا هدف معين، ينطق بالحق إذا أمن، ويماري إذا

وجد الرقيب وخشي المعارضة! ويأتي التفصيل عند الكلام على العلماء.

أما الشباب المتعلمون، فقد انقسموا أحزابا عديدة، وفرقتهم المشارب والأهواء، وأشغلوا أنفسهم بالقيل والقال، وتعداد المناطق الانتخابية، ومعاركها وكمية أصواتها، ومن الفائز والمنهزم والغالب والمغلوب! فالأمل ضعيف بانبعاث الحركة الإصلاحية من بيئتهم، إذا استمروا على هذه الحال. وبالرغم من ذلك فإنهم في القريب العاجل، سيكونون العامل الوحيد، على تنبيه الأفكار ونشرها من القبور. ويأتي التفصيل عند الكلام على الشباب.

أما هؤلاء الزعماء النواب فعليهم تقع التبعات والآثام: يرشح أحدهم نفسه للنيابة، ويخوض المعارك الانتخابية، ويضحي بكل ما لديه مستهينا بالنفس والنفيس. ولكن لا ليحقق مثلا عاليا وفكرة صحيحة، تعود على أمته بالخير، فكل ما يبغي من وراء النيابة، الألقاب والمظاهر، ونكاية الخصوم! والتوصل إلى منافعه الشخصية: بهذا الدافع يجري وراء أعماله النيابية كلها، وعلى هذا الأساس يعارض ويوافق ويمنح الثقة ويمنعها! فإذا نال ما يشتهي ذل وخضع،

والّا ثار ثورة الأسد المكلوم...

وإلى هذا يعود السبب في تخاصم الزعماء، حيث تتزاحم الأهواء وتتصادم الأغراض، فتقع الحروب الدامية والمعارك الحامية.. ولو كان هدف الجميع، مصلحة البلاد لاتحدت قلوبهم على هذا الأساس، وعملوا يداً واحدة. ولكن اين أهل المفاداة والقداسة والوطنية، من أهل الأغراض والشهوات البهيمية؟!

صفات الزعماء وسلوكهم

يجتمعون ويصطلحون أيام الانتخاب... ثم يتفرقون ويتخاصمون في عهد النيابة.. يجتمعون ليوحدوا القوى خوفاً من فوات الغنيمة.. ويقتتلون عندما تقع صريعة بين أيديهم، إذ يحاول كلٌ ان يحوزها دون صاحبه.. يفترقون هنا، ويجتمعون هناك،ولم نرهم اجتمعوا ثانية من الدهر، فوقفوا صفاً واحداً، مطالبين بحقوق البلاد عامة، من الوظائف إلى الطرقات إلى المدارس. ولم نسمعهم ينادون صوتاً واحداً، يعود خيره إلى الجبل بأجمعه: ساحله وجبله، وشعبه وشقيفه، شومره وتفاحه.

يفترق رجال الدروز، ويقف كل واحد من صاحبه

موقف العدو المعاند، فيعارضه في البرلمان، ويزاحمه على الوزارة، وربما قاتله على المختار والناطور، ولكنهم يجتمعون على صالح أمتهم، ويتناسون الأغراض في سبيل كيانها وإعلاء كلمتها.

أيها الفلاح المسكين! أتحترم الزعيم، وتهتف باسمه، وهو يسخر منك لفقرك، ويهزأ بك لجهلك. وإذا كان يعطف عليك ولا يحتقرك - كما يدعي - فاسأله عن المجهود الذي بذله لتحسين زراعتك، وزيادة انتاجها. وإذا كان لا يطمع بأموالك واتعابك، فاسأله لماذا وافق على زيادة الضرائب، وجعلها اضعافا مضاعفة.. اليأتيك بالماء؟ فها انت تموت عطشا! أم ليفتح لك الطرقات؟ وهذه الأشواك والأوعار تمزق ثيابك! وتلك الصخور والاحجار تدمي جسمك ولحمك! أم ليعمم المدارس في القرى؟ وهذه أطفالك تتسكع في الشوارع، تحفظ الألفاظ البذيئة، وتكتسب العادات القبيحة...

أتدري لماذا زادت الضرائب، والزموك بدفعها أضعافا؟! زادت لارتفاع أثمان السيارات الحديثة، التي يركبها النائب! والأجواخ الفاخرة، التي يلبسها الزعيم! ونفقات المصايف اللبنانية التي يصطاف بها النائب!

ومراقصها وملاعبها ومقاهيها وملاهيها التي يلهو فيها البيك...

إن الحكومة اللبنانية تسلمت من الفرنسيين؛ الجمارك والبرق والبريد والهاتف، وسائر المواد الحيوية التي تدر الملايين... ألا تكفي هذه مرتبات الموظفين والنفقات العلنية والسرية أيضاً؟! أتجمع الحكومة على الفلاح الضرائب المباشرة، وغير المباشرة وتزيدها أضعافا ثم تكون حالة الفلاح الذي عليه مدار لحياة أسوأ مما كانت عليه؟!.

والمضحك المبكي العجيب الغريب الذي سيكون وصمة العار والشنار، في تاريخ النواب مدى الدهر، هو نقمتهم على الحكومة وإعلان الثورة عليها، إذا لم تحقق شهواتهم، ولم تنزل عند رغباتهم النفعية، محتجين عليها بحقوق الطائفة وضياعها!! وما أسرع ما تعدهمْ تمنيهم، حتى يعلنوا مناصرتها، ويمنحوها الثقة والتأييد، على حساب الطائفة المفجوعة! يا للسخرية والعار ويا للسخافة والجهل.

أيها النواب! إذا غضبتم لأجل الطائفة كما تزعمون، فلماذا رضيتم قبل أن تحصل الطائفة على حقها المهتضم؟ وإذا كنتم أرباب غايات، وأصحاب شهوات! فلماذا اتخذتم الطائفة آلة ووسيلة؟!

وأنت أيها الفلاح! ألا تتعظ بهذه الألعاب، وتقتدي بالنواب أنفسهم، فتنقم عليهم، وتثور إذا لم تحصل على مصالحك، وترضى إذا تحققت آمالك وأمانيك، فتمثل معهم الدور الذي مثلوه مع الحكومة؟؟

أثر تحزب الزعماء بالأخلاق

لقد أحدث تفرّق النواب، واختلاف أهوائهم الحزبية، أثراً بعيداً في الأخلاق. فما تخاصم اثنان على كلمة أو ميراث وما إلى ذلك، ما لا يمت إلى الزعيم بصلة أدبية ولا مادية، إلا سلك أحد المتخاصمين طريقا إلى نائب، وسلك الآخر طريقا إلى النائب الثاني. فإذا ما انتهى كل واحد إلى نائبه، أظهر له التسليم والانقياد، بصب اللعنات والشتائم، على رأس النائب الثاني بغير حساب، ثم أخذ يشرح قصة النزاع بينه وبين صاحبه، مُرجعا أسباب الشجار إلى شيء واحد دون غيره، وهو تحزب رفيقه لخصم البك، وموالاته هو لسعادته، مع قيد الأفضلية له على البك الثاني وعلى كل من أقلته الغبراء، وأظلته الخضراء! وهنا يتخادع النائب ويعلن له المناصرة التي يعقبها الانتصار المحتم. فيغريه بصاحبه، ويشتد النفور والشقاق، حتى يصعب على مريد الإصلاح التلاقي والتوفيق ولو حذره عاقبة الخلاف، وأنه يعود عليه

بالفشل والخسران وسعى لإصلاح ذات البين، لاستأصل شأفة الفساد، وقام بواجب الدين والإنسانية. ولكنه زاد في الخرق اتساعا، وفي النار تأججا، ليشغل الناس عنه، ويصرفهم عن إهماله وتقصيره. وكأنه يمثل مع منتخبيه الدور الذي مثله معه رجالات السياسة في لبنان الذين يغرون بعض النواب ببعض، ويؤججون بينهم نار الفتنة، لتسلم لهم الغنيمة، ويقتسموها باردة من دون رقيب..

وزج الشيطان أخاً له بين زعماء الجنوب، ليستمر الشقاق ويستحيل الصلح إحكاماً لخطة الافساد والتخريب، فنجم عن ذلك خراب البلاد العاملية، كما عاد على الزعماء بالفوائد الجمة..

يمنّي النائب المتخاصمين، بالمواعيد الكاذبة، والادعاءات الفارغة ليكثروا الترداد اليه، والوقوف بين يديه.. فيخال الرائي أن النائب من ذوي السلطات والنفوذ.

(يقول الصادق (ع) يجبل المرء على طبيعة، إلا الكذب والخيانة): كذب بإخلاف المواعيد، وبعد الأفعال عن الأقوال، وخيانة بإيجاد (الشارات) التي هي من أقوى أسباب الفساد والشقاق في البلاد..

وعلى هذا الأساس لم يأت أحد من النواب بخير، بدافع الخير المطلق. ولا عمل عملا مجرداً عن كل مسحة حزبية، فإذا سعى لمدرسة أو مشروع فيه خير، خصه بقرية تمت اليه بصلة حزبية، ليتخذ من أهلها سلاحاً يصول به على أهل قرية أخرى، تشايع خصمه وتواليه.. وهكذا يفعل الثاني، فيرد له الضربة بمثلها. وربما شقوا القرية الواحدة على نفسها، فحاربوا الأخ بأخيه، والولد بأبيه، يتراشقون بالقرويين كما يتراشق هؤلاء بالأحجار، فكثرت المعارك وعمت الفوضى وأريقت الدماء. ففي كل شهر قتيل! وفي كل اسبوع جريح! وفي كل ليلة سلب ونهب! هذا والزعيم في أمن وأمان على نفسه وماله، لا يذهب من ماله عقال ولا من جسمه قلامة ظفر. فالقتل والجرح والتغريم والسرقة والحبس من الفقير ونفسه وماله...

أيها الكادحين استيقظوا

أيها المسكين البائس!! أما آن لك أن تنتبه إلى نفسك، وترجع إلى رشدك؟؟ دعن الزعماء وشأنهم يتقاتلون على الكرسي والمنصب! لقد قضوا الحياة في شقاق فهل رأيتهم يوما يتراشقون بالاحجار؟ ويتطاعنون بالمدى؟ ويتضاربون

بالعصي؟ فلماذا تعمل لأجلهم عملا، هم يربأون بأنفسهم عنه؟ أتقاتل أخاك الذي لا يزاحمك على شيء، لأجل قوم يتسابقون على الحطام؟!.

فانظر لنفسك أيها العامل كيف تقضي النهار حائراً! وتطوي الليل جائعاً! لا تجد عملا يعود عليك بالرغيف.. وإذا فررت من الجوع إلى فلسطين، ألقوك في غياهب السجون.. كأنك من مجرمي الحرب!.

وأنت أيها الفلاح منك تملأ الحكومة خزائنها، بينما تعمل الليل والنهار أنت وعيالك، ثم تعيش عيش الحشرات! تفتك بك الامراض فلا تستطيع التطبيب والتداوي. وتشرب الماء ممزوجا بالطين والقذرات! وأطفالك يلعبون مع القطط والكلاب! وإذا قطعت مسافة قصيرة صعدت جبلا وهبطت واديا! لا علم.. لا طريق.. لا ماء.. جهل.. وأمراض.. وفقر.. فانقم على نوابك كما نقموا على حكومتهم إذا لم تلب طلباتهم الحزبية والنفعية..

العلاج

لا علاج لهذه الأدواء إلا بالوعي والعلم. والإقبال على التغير والتقدم، والتضحية بكل غالي في سبيل ذلك. إن

الجهل والخنوع مصدر البلاء وينبوع الفساد، ولو كان وراء هؤلاء الزعماء المسؤولين أمة واعية تحاسبهم حساب الاصيل للوكيل، والمستأجر للأجير، لانقلبوا مصلحين امناء، يقدسون الواجب ويعملون للوطن.

نحن مستعمرون مستعبدون ما دمنا جهلاء، وإن تحررنا من التركي والفرنسي. لا استقلال مع الجهل ولا جهل مع الاستقلال.

أيها المهاجرون

أيها المؤمنون الأثرياء أنتم محل الأمل، وأهل العمل. إن اردتم أن تعملوا لخير الوطن، واعزاز الدين (واحياء القومية)[1] والتبسط في العمران، فانفقوا في سبيل العلم، أحيوا المدارس والمؤسسات نشطوا الشباب العاملي على السير في طريق المعارف، فإنما الثروة في انتشار العلم والوعي.

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون).

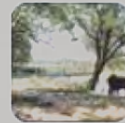
---

(١) يعني المؤلف القومية المتحررة من نير الاستعمار وهو العالم الاسلامي الذي لا يرتضي بغير الاسلام عقيدة ومواقفه من هذا الموضوع عن التعريف غنية عن التعريف.

الناشر

قرى مجهولة في لبنان
لم تكتشف حتى الآن

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا﴾
﴿مترفيها ففسقوا فيها فحق﴾
﴿عليها القول فدمرناها تدميرا﴾
(قرآن كريم)



قرى مجهولة في لبنان
لم تكتشف حتى الآن

إلى جنوب لبنان القديم، أرض مكتظة بجبال لا يحصى عددها تختلف علواً وانخفاضاً، فيرتفع أعلاها عن سطح البحر ألف متر أو فوقها بقليل، ثم تتفاوت في النزول حتى يبلغ الأدنى، المئة أو ما يقرب منها وهي في تقاربها ودنو بعضها من بعض، كأصابع الكف يخالها الرائي من بعيد جبلاً على هيئة سلم، لم تنظم درجاته ومراقيه. تدعى هذه الجبال ـ التي هي كالجبل الواحد ـ على لسان ساكنيها وعارفيها (بجبل عامل) وربما كان هذا هو السر بتسميتها بصيغة المفرد دون الجمع.

وقد شاء الفرنسيون وأذنابهم أن يسمى هذا الجبل بالجنوب تمويهاً بأنه جزء من لبنان، له ما للبنان وعليه ما عليه، ولكن لبنان أصبح دولة وجبل عامل من

---

(١) اقرأ وصفها مفصلاً في زوبعة الفلاح

مستعمراته![1] يدر عليه عسلاً وسمناً، ينتثر على رؤوس تلك الجبال قرى ومزارع هي في عين الناظر البعيد، رجم وآكام، وفي عين الرائي القريب قبور وأجداث.

وكأنها فرت من لبنان لما رأت نفسها عند حكامه ونوابه، في مكان الوصيف، وغيرها في مكان السيد. رأت لغيرها الغنم وعليها الغرم.. لغيرها المدارس والمستشفيات والطرقات.. وعليها دفع الضرائب والنفقات! لغيرها الصحة والعلم.. ولها الجهل والأمراض! لغيرها العيون الجارية والرياض الزاهية.. ولها المستنقعات الراكدة والأشواك الدامية! لغيرها المقاهي والملاهي والثراء.. ولها التعب والجوع والعراء!.

فرت من هذا الإجحاف والظلم قاصدة فلسطين كما يقصدها الجائع البائس طالب الرغيف الذي لم يجد في لبنان مكسباً ولا ملجأ، فاعترضها الأمن العام، وحاول إرجاعها إلى الجمهورية اللبنانية فأبت، وأقامت على الحدود بلا ماء وكلأ، احتجاجاً على ما لحقها من الحيف والجور...

(١) الجنوب مستعمرة (لبنان) قالها محمد جواد مغنية في مطلع الاربعينات أي قبل أربعين سنة وقبل أن تتفشى الأفكار التحريرية والتنظيمات الوطنية.... ، ويقصد المؤلف (مستعمراته بالجمع اي مستعمرات بعلبك ، الهرمل وعكار.
الناشر

ولو عددت قرى جبل عامل، قرية قرية وما لحقها من الإهمال لأخرجت عدة مجلدات! لذلك أختصر على وصف بعضها، وأجعله نموذجاً تعلم منه حال بقية القرى، كما يقدم التاجر نموذجات لأنواع بضاعته. ولأكون على هدى في القول، أصف الناحية التي أقيم فيها لأنني شاهدت بنفسي نكباتها:

لقد شاءت الأقدار سنة ١٩٣٨ أن أجعل مقري في قرية من قرى الشعب تدعى ـ طيرحرفا ـ تقع وسطاً بين (شمع) و (الجبين) و (مجدل زون) و (يارين) وما يتبعها. تحيط بهذه القرى الأوعار، وتملأ أرضها الصخور والأحجار، يصعد قاصدها جبلاً ويهبط وادياً، فلا يصلها حتى يبلغ التعب والكلال منه مبلغه. إن هذه القرى البائسة على ما بينها من قرب الجوار، ودنو الدار ليس فيها مدرسة تأوي إليها الأطفال الذين يقضون حياتهم بين الحيوانات ولعباً مع الكلاب!.

أما الحالة الصحية فالحديث عنها ذو شجون وفنون في سنة ١٩٤٥ فتكت بهذه القرى الملاريا فتكاً ذريعاً، فلم يسلم منها واحد بالمئة وأودت بحياة مئة نفس على الأقل، فمات من مجدل زون وحدها سبعون شخصاً على التقريب

مع أنه لا يتجاوز عدد سكانها أربعمائة شخص! للعجز عن العلاج والتطبيب، حتى باع أهل القرية الحبوب، وشطراً من الحيوانات التي يضطرون إليها للفلاحة والزراعة، وأنفقوا الثمن على الدواء والأطباء.. ولكن على غير جدوى. وأخبر مختار القرية طبيب البلدية في صور بالحالة فلم ترسل الحكومة طبيباً، ولا ممرضاً ولا حبة من الكينا. وأشد من المرض وقعاً الوصول إلى الطبيب لعدم تسهيل المواصلة، وإذا طلبوا أي طبيب إليهم تقاضى مئة ليرة أجر ذهابه وأيابه، فكانوا إذا لم يستطع المريض الركوب على الدابة يضعونه في نعش الأموات، ويحملونه على الرؤوس والأكتاف كما يحملون الميت ليوصلوه إلى طريق السيارات، فيوحي هذا المنظر المخيف في نفس المريض هواجس الموت، فيزيد في علته، وربما قضى على حياته، وكان حاملوه كلما مشوا قليلاً وضعوه على الأرض واختبروه هل مات من الخوف وحرارة الشمس ولفحات الهجير! وإني أعرف أفراداً معرفة شخصية ماتوا على هذه الحالة المشجية قبل أن يبلغوا الطريق العام!

أما العطش وعدم وجود الماء، فأكتفي بنقل نادرة طريفة تدل على كل ما يتصل بالموضوع، كما تمثل جهل العوام

وسيرهم من غير وعي وشعور.

في سنة ١٩٤٦ وقع العامليون في شدة وضيق من جرّاء تأخر الري، وكان نصيب الشعب من هذا البلاء وافراً، فكان السكان يقضون الليالي والأيام الطوال، لا يغسلون ثيابهم وأبدانهم لفقدان الماء، وصادف في هذه الفترة زفاف عروس إلى عريسها، فاستعد ثلة من شباب القرية، وهيأ كل واحد منهم قليلاً من الماء لغسل ثيابه وبدنه استعداداً لحفلة الزفاف. ونظراً لقلة الماء وعدم كفايته لتنظيف الثياب والبدن معاً، كانت ربة البيت تغسل الثياب بالماء أولاً حتى تصبح غُسالة الثياب كالقطران، ثم تجمعها ثانياً ليغتسل بها صاحب الثياب، وتنتقل القذارة من ثيابه إلى وجهه وبدنه، وبعد هذه العملية السوداء يلبس المغتسلون ثيابهم، ويحملون طبلهم، يطبلون وينشدون للبك والنائب حتى يبست منهم الحناجر، وبحت الأصوات، وكلت القلوب والأبدان.

لقد هالني ما رأيت وسمعت، أهؤلاء أحياء أو أموات؟ كلا إن الميت جماد، لا يطبل ولا يزمر. أهكذا يفعل الجهل بصاحبه فيريه القطران ماء، والجوع ثراء، والمرض دواء!! قلت لبعضهم ماذا أفدتم من ـ البكوات ـ والنواب لتطبلوا

هم وتزمروا؟ أنظروا في أية حالة أنتم؟! - فأجابني أحدهم أطال الله عمرك يا سيدي: اليك هو يفيدنا؟! نحن يجب علينا أن نفيده نحن المقصورون! لقد أنساني هذا الجواب، الماء والطرقات، أنساني الجوع والمرض، أنساني كل شيء ولم أذكر معه إلا شيئاً واحداً هو العلم والمدارس إن الجهل داعية الطيش، وآلة الشر، وجرثومة الفساد.

أنساني كل شيء وذكّرني بقول عبد الرحمن الكواكبي: «العوام هم قوت المستبد وقوته، بهم عليهم يصول وبهم على غيرهم يطول. يأسرهم فيتهللون لشوكته، ويغصب اموالهم فيحمدونه على بقاء الحياة، ويهينهم فيثنون على رفعته، ويغري بعضهم ببعض فيفتخرون بسياسته، إذا اسرف بأموالهم يقولون عنه إنه كريم وإذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيماً، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب، وإن نقم عليه منهم بعض الأباة قاتلوهم كأنهم بغاة».

إن الله تعالى أمر المستبد المترف أن يؤديَ أمانة الأمة فعصى وخان، واطعناه نحن بل نعتناه بالمصلح الأمين، فكنا سبباً لتماديه في الغي، فحقت علينا وعليه كلمة العذاب.

هذا شعور العاملين نحو زعمائهم وقد أقروهم على

جهلهم، واتوا بأعمالهم، وفقاً لهذه العقيدة التي لم يقرها أحد من الوثنيين في العصور المظلمة..!

إن هاتيك النكبات وهذا الجهل الذي يفضل الموت عليه، لم يختصا بالشعب وقرى الشعب، فإن رزية سائر القرى العاملية لا تقل عن رزية قرى الشعب، في جهله ومرضه وعطشه.

لا دواء لهذا الداء سوى العلم فإلى المدارس يا ابناء عاملة، والى السخاء في سبيلها أيها المهاجرون.

قصبة أم فرس

خرجت من منزلي يوماً، فرأيت أطفال القرية، بنين وبنات مجتمعين في مكان فسيح، وقد أخذ كل طفل قصبة ضمها بين ساقيه، وقبض طرفها بإحدى يديه، وباليد الأخرى عود صغير، وقد أطلقوا جميعاً العنان لسوقهم، وهزوا العيدان بسواعدهم بفخر وإعجاب، ورفعوا أصواتهم بالصهيل حيناً، وحيناً بنشيد الحماس، ومن خلفهم البنات يزغردن، ويصفقن فرحات مغتبطات يكررن قول: (الله واسم الله) فإذا سكت البنات صاح بهن فرسان القصب: (زلغطوا يا بنات)..

رأى الأطفال آباءهم يركبون الخيل والنساء تزغرد خلفهم، عندما يزفون عروس القرية إلى زوجها فتشبه الأبناء بالآباء، واتخذوا من القصب فرساً، ومن الحطب سيفاً، لأن هذا السلاح والفرس لذلك الفارس المحارب!

وبدلاً من أن يذكرني هذا التمثيل الساذج البريء بأيام الصغر، ويعود بي إلى ذكريات الطفولة، ويوحي إلى نفسي، أن الراحة والهناء في عدم الوعي والإدراك، وإذا به ينتقل بي إلى حالتنا مع الساسة (البكوات) نواب الجنوب، وفرسانه المتسابقين في ميادين العنعنات الفارغة والمظاهر الجوفاء ذاهلين عن واجباتهم وما ألقي عليهم من التبعات.

إن ساسة البلاد، وقادة الشعوب يسارعون إلى العمل على تقدم أمتهم في مضمار الحضارة لتحتل المكان الأول من دون الأمم كافة، وأكثرهم لها نفعاً أسبقهم جميعاً إلى العظمة والجلال، ويتسابق ساستنا ـ العامليون ـ في ميدان الحزبية والتخاصم، وتخوض الخيل في الدماء، ولكن لا ليحققوا أهدافاً وطنية وغايات سياسية تناط بها مصالح البلاد وتقدمها بل ليكون نصيب أحدهم من دم الفقير (وقرشه) أوفر من نصيب أنداده، ثم يطلبون إلى الشعب المكافأة على هذه الجهود بالهتاف والتصفيق وترتيل أناشيد الظفر والنصر كما

يهتف البنات الصغار لفرسان القصب.

ركب الأطفال قصباتهم، وزغرد لهم البنات، ولكن لا سيوف ولا دماء ولا شيء سوى اللهو واللعب قام بهما من لا يسأل عن شيء ولا يجب عليه شيء سوى اللهو واللعب، فهل لا يجب على ساستنا شيء، ولا يُسألون عن شيء، حتى عن جوع الأمة وعطشها وجهلها ومرضها وطرقاتها ونكباتها؟! لا يسألون إلا عن التخاصم والأضغان في سبيل الشهوات البهيمية، وهل لا يجب علينا نحن إلا الهتاف والتصفيق، والخضوع والتقدير؟ حقاً لست أدري أن هؤلاء الساسة يعون ما يفعلون، أم هم في غفلة الغرور، أم ينظرون إلى أمتهم كما ينظرون إلى البهائم التي فقدت نعمة الوعي والتمييز، فلعبوا على المكشوف ـ كما يقال ـ

وإني أعرف كما يعرف غيري أفراداً من المتعممين والشبان المتعلمين والموظفين قد تجاوزوا حدود أنفسهم، وتسابقوا على القصب واتخذوا سلاحهم من الحطب! ولكني أعرف كما يعرف غيري أيضاً أن أمثال هؤلاء غير مسؤولين عن شيء ولا يمثلون شيئاً سوى أنفسهم، فليسوا بوكلاء الأمة، ولا توصلوا عن طريقها إلى غايات لولا الأمة لكانوا عنها بمكان الهر من الأسد.

نحن لا نريد من نواب الجنوب أن يتعصبوا لطائفة دون طائفة ولا لعنصر دون عنصر ولا لإقليم دون إقليم، ولا نريد منهم أن يجعلوا من جبل عامل أميركا الثانية، وإنما نريد أن يكون جبل عامل جزءاً حقيقياً[1] من لبنان له ما له وعليه ما عليه، فتقاس مدارس جبل عامل بمدارس جبل لبنان وطرقاته بطرقاته ومستشفياته بمستشفياته، حتى إذا جاء التاريخ قاس جميع أجزاء الجمهورية اللبنانية بمقياس واحد بدون تفاضل وتمايز بين جزء وجزء، لا أن يكون جبل لبنان فرنسا والجنوب جبل عامل!!

ليست خدمة الجنوب خدمة لأبنائه خاصة، وإنما هي خدمة للبنان جمهوريته ووزرائه ونوابه، إن الجسم لا يكون سليماً تاماً إذا كان في بعض أعضائه خلل وفساد، إن فساد الجسم بفساد بعض أعضائه، وسلامته بسلامة الكل.

---

(١) لكن الحقيقة المفجعة ان جبل عامل بقي على حاله ، لان شيعة الجنوب والبقاع هم كعبيد جنوب افريقيا مع انهم الاكثرية والطائفية الاولى من حيث التعداد الكافي للبنان . الناشر

جبل عَامل والعلمـــاء

﴿لقد كان لكم في

رسول الله أسوة حسنة﴾

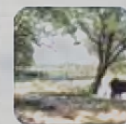
(قرآن كريم)

جبل عامل والعلماء

العلماء بهم يستسقى الغمام، وبهم يرفع الله تعالى العذاب لأنهم ورثة الأنبياء، ولا مرتبة فوق النبوة، ولا شرف كميراثها، فالعلم علاقة قدسية بين الطرفين تقتضي وراثة العلماء للأنبياء، وللأرث موانع يعرفها المتفقهون، والمانع من وراثة النبوة ان لا يجري العلماء على سنة الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلم، فلا يغارون لدين الله، ولا يعملوه للعلم، واعلاء كلمة الدين، ولا يهمهم من أمر الأمة شيء ولو أكلتها الذئاب ومزقتها الكوارث والخطوب.

أما الذي أريده من لفظ العلماء هنا فهو ما اصطلح عليه العرف العاملي من هذا اللفظ، وهو كل من كوّر العمة وأطلق اللحية، وهم ليسوا سواءً في العلم ولا في الأخلاق والعمل.

فإنّ منهم الضعيف بفطرته القاصر باستعداده، لا



يتذوق الآداب العامة فضلاً عن قضايا العلم والدين، فلا يستطيع أن يأتي بحديثه تبعا لمقتضيات الأحوال، ويجامل الناس حسب شعورهم في الأفراح والأحزان والاستقبال والتحيات، فأي بيت دخله شرع بمدح صاحبه حقيراً كان أم كبيراً مسروراً أم حزيناً، ومثل هذا لا يصلحه الدرس، ولا تنفعه القراءة والمطالعة، فخير له أن يدع الفتوى إذا سئل عن أمور الدين، ويترك الحكم إذا ترافع اليه المتخاصمون، ولا يتعرض لشيء من الأمور العامة، وله أن يصلي جماعة بقوم يثقون به، وإذا فاته العلم وحرم من نوره ولذته فلا يفوته الزهد والعبادة وكرم الخلق، فإنه إذا صام النهار وقام الليل وزهد بما في أيدي الناس كان من العباد والزهاد المقربين من الله الموثوقين لدى عارفيه، ويكفيه شرفاً أن يكون عابداً عادلا وإن لم يكن عالماً فاضلا.

الفريق الثاني من العلماء من له موهبة تؤهله للفضل واستعداد يوصله إلى معرفة الحقائق، وبذل جهوداً في سبيل الأصول والفقه وكان حظه منهما غير قليل، ولما عاد إلى جبل عامل ترك الكتابة والكتاب، وأعرض عن كل شيء إلا عن (شكارته) وأهل قريته يعاشرهم ليلا نهاراً، ومن لم يأته أتاه، يستمع لهم ولا يستمعون له إلا إذا حدثهم عن (نوار

وحنجول) فأصبح بقوة استمرار الالفة عامياً كأحدهم أو كاد، والحق بالأول، بل أضل سبيلاً لأن ذاك قاصر بفطرته، وهذا مقصر في إهماله، ولو طالع وراجع لبقي محتفظاً بما لديه ان لم يزك وينم.

وفي عقيدتي أنه لا وزر يعادل وزر هذا العالم الظالم لنفسه وللعلم، قتل نفسه بمدية الجهل بعد ما احياها بنور العلم!!

ترك بلاده سنين طوالاً وأنفق أموالاً طائلة وتحمل الآلام والمتاعب، وحمّل ذويه الذل والمصائب حتى إذا حصل على الثروة القدسية الثمينة القاها في اليم! ولو كان لي من الأمر شيء لحجرت عليه لأنه سفيه، ما في ذلك ريب.

تخرج احد العلماء من الأزهر ونال درجة العالمية ولكنه ابى أن يلبس العمة، ولما ألحوا عليه وناشدوه ان يلبسها قال لا ألبسها الا اذا استطعتم نزعها عن رؤوس الجهلاء واصبحت شعاراً مصوناً. وسأل عالم احد القادمين من العراق قال: يقال ان فيصلا ملك العراق فمن هو إذن رئيس الجمهورية؟!.

الثالث من له استعداد الثاني وجهوده، وترك الكتابة

والكتاب بعد وصوله إلى عاملة كما تركهما صاحبه، ولكنه لم يشتغل بزرع الشكارة وعلف الحمارة، ولم يقتل الوقت مع جهال قريته، وإنما انصرف إلى الحزبيّة والأحزاب، فناصر بيكاً وحارب بيكا واتخذ العلم أداة لمآربه، وتدخل في أمر المختار والناطور وطرق أبواب الزعماء، ووقف على أعتابهم وتضرع لأهل الوجاهة يستجديهم العون والنصرة على ما يراه حائلا بينه وبين شهواته، والغريب أن بعض هؤلاء يعبر عن نفسه ـ كما بلغني ـ: ببطريرك الشيعة!! إن الذي يطمح إلى هذا المنصب يحمل روح نبي مصلح عظيم، كله أنفة وروحانية، كله حياة وقوة، لا يتطلب من غيره إلا دون ما يعطيه من ذات نفسه، فراض نفسه رياضة صحيحة حتى رأت الخير في التسامح ببعض حقوقها لا بالتعدي على حقوق الآخرين، والتهجم على كرامة المؤمنين.

الرابع من بذل جهوداً جبارة في سبيل العلم ونال منه مرتبة عليا، ولم يهجر الكتاب في جبل عامل فاحتفظ بفضله بل زاده نمواً وانتاجاً، وتجرد عن الأحزاب والحزبية، ولم يعتنِ بما قيل ويقال ووزع أعماله على العلم والعمل لشؤون معاشه بطريق مشروع مألوف ولم ينقطع عن الحياة الاجتماعية فيقرأ ما يتيسر له من الصحف والكتب الحديثة،

وإذا اجتمع مع إخوانه سأل وذاكر إذا أمن الضرر وإذا سئل أجاب بمنطق الشرع والعقل، وإن لوجود هذا العالم فوائد جمة في بلاد كجبل عامل، منها إحياء الشعائر الدينية، وفض المشاكل والنزاع في الدعاوى المالية وتأهله لإصلاح ذات البين لثقته في النفوس بسبب بعده عن الأحزاب والأهواء.

الخامس من عرف واجبه تجاه نفسه ودينه وأمته، وقام به أحسن قيام، فأوقف حياته للصالح العام، وسعى لإعلاء كلمة الحق وسلك كل سبيل مؤدية إلى مرضاة ربه وإحياء سنة نبيه، فشيد المساجد والنوادي والمعاهد لتربية النشء واخرجهم من الظلمات إلى النور، وألف الكتب العلمية والأدبية والدينية والتاريخية؛ وهدى الخلق إلى الحق فكان عنواناً لعظمة الإسلام والمسلمين وتاريخاً لمجد الأمة العاملية وخلودها مدى الحياة.

وبعد فلا يسوغ الحكم على العلماء بحكم واحد وجعلهم في الميزان سيان، لقد كثر الكلام حول العلماء وانتقدوهم شر انتقاد؛ وكلفوهم بكل شيء؛ ولم يتكلفوا لهم شيئاً؛ ضنوا عليهم بالرغيف ثم طلبوا منهم أن يمنحوهم الحياة!

والشيء الوحيد الذي لا يمكن الاعتذار عنه، ولا بد

من مؤاخذتهم عليه؛ هو وقوف أكثرهم من تلك الأحزاب وشاراتها موقف الغريب المتفرج الذي لا يعنيه من الأمر شيء، مع أن الدين يقضي عليهم أن يوحدوا صفوفهم ويرفعوا أصواتهم ساخطين محتجين على الحكومة والنواب متبرئين من تلك المفاسد التي ملأت الأرض وعمت الأقطار، وكلهم يعلمون حق العلم أن هذا الواجب أفضل من عامة الصلاة والصيام، ولكن يخشى بعضهم بعضا ويخافون الفريق الثالث الذي انغمس بالحزبية من قرنه إلى قدمه.

ذكر صاحب(كشف الغمة)أن المنصور كتب إلى الإمام الصادق (ع): لم لا تغشانا كما يغشانا الناس؟ فأجابه: ليس لنا من أمر الدنيا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنيك، ولا في نقمة فنعزيك فماذا نصنع عندك؟ فكتب إليه المنصور: تصحبنا لتنصحنا، فأجاب الإمام (ع): من أراد الدنيا لا ينصحك؛ ومن أراد الآخرة لا يصحبك، فقال المنصور لقد ميز عندي منازل الناس، وإنه ممن يريد الآخرة لا الدنيا.

فهل تدبر هذا الحديث أولئك الذين رأوا السعادة في أن يكونوا من حواشي الوزير وأتباع النائب، إن الذي تخرج

بحق من تلك الجامعة الكبرى التي أنشأها الله تعالى، والتي يديرها خاتم الأنبياء (ص) وأساتذتها أمير المؤمنين علي وأولاده المعصومون (ع) وتلامذتها أقطاب العلم وعظماء الإسلام كالشهيد وأترابه إن الذي تخرج من هذه الجامعة بحق يقرر بأفعاله قبل أقواله قداسة الأنبياء، وأخلاق الأوصياء وشيرة العلماء، ويضرب من نفسه مثالاً في صغر الدنيا وعظمة العفة والإباء، فيترفع عن مواقف الذل والضراعة ويتنزه عن مظان التهمة والدناءة.

لقد سيطر الإسلام وامتد نفوذه وقوي سلطانه عندما كان العلماء روحانيين بالمعنى الصحيح، يحملون شهادة تلك الجامعة الإلهية بجدارة واستحقاق لا بالتلفيق والأباطيل!

وما زال الناس منذ القديم مفطورين على التأسي بالعلماء والاقتداء برجل الدين، فإذا انحطت أخلاق العلماء وضعف ايمانهم أمات الناس سنن الشريعة، وأحيوا البدع والضلالات وفشا فيهم الكفر والزندقة كما نراه اليوم..

يقيم أحد هؤلاء المتحزبين في النجف مدة تؤهله لاصلاح احدى القارات الخمس، ومتى عاد إلى بلاده عجز عن إصلاح قريته بل عن اصلاح أهله وأولاده بل عن اصلاح نفسه وحملها على فعل الحق وقول الصدق وتهذيبها

من شوائب الحسد والغيبة والافتراء والغرور، أبهذه الأعمال تدوس العلماء على أجنحة الملائكة؟؟

أين مكارم الأخلاق التي بعث النبي لإتمامها؟ أين تدبر الوحي الذي نزل على قلبه؟ أين تعاليم الأئمة الأطهار وسيرة العلماء الأبرار؟؟

«فاتقوا الله واطيعون، ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون».

علماء الدين
ما لهم... وما عليهم

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾
(قرآن كريم)

في خلال القرون الوسطى وقعت في الغرب حروب وفجائع بين العلماء والفلاسفة من جهة ورجال الأديان من جهة أخرى وكانت هذه الحرب في حقيقتها حرباً بين العلم والجهل، بين حرية الفكر واستعباده، فكان رجال الدين يردون قول غاليلو وكوبرنيكوس إن القول بدوران الأرض يستلزم أن يكون لها أطراف وعضلات كالحيوان لتقدر على الحركة أو يكون هناك ملك يديرها كما يدير الانسان الرحى، والأرض هي مأوى الشياطين وليست مقراً للملائكة، ومن المستحيلات أن يسكن أناس على الجانب الآخر من الأرض لأنهم لا يستطيعون رؤية المسيح عند هبوطه من السماء إليها، وعلى هذه المعتقدات بنوا حكمهم بالقتل والحرق على

---

* نشرت في مجلة العرفان ج٧ م٣١

كل من نزع الى جديد من علم وكشف عن حقيقة من أسرار الطبيعة إذن ليس بغريب أن تسيل دماء العلماء والأبرياء وتسود الفوضى بين قوم هذه عقول سادتهم ومبادىء قادتهم، وأنما العجيب أن يقع من قومنا الذين ليس فيهم مكتشف ولا فيلسوف ولا مصلح، ما يشبه المقت والنفور من علمائهم ورؤساء دينهم ويوجهون إليهم اللوم والطعن وهم يدعون الى الشريعة السمحة ويحملون الدين الذي يتمشى مع كل عصر ويعلمون أن وظيفته علمية عملية لا اجتماعية ارشادية فحسب، فكثير من الحمقى الذين ليس لهم معرفة وحياء وذوق يقفون أمام العالم موقف المرشد المنذر يأمرون وينهون ويبدون ويعيدون وهم لا يعون ما يقولون ولا يفهمون ما يقال لهم.

لقد هزلت حتى بدا من هزالها

كلاها وحتى استامها كل مفلس

أما الأمور التي يؤاخذون عليها فهي (١) انهم لم يفتحوا مدارس علمية كما فعل العلماء السابقون (٢) انهم اهملوا الإرشاد والأمر بالمعروف وهو من أهم الواجبات الدينية وأسماها حتى عم الفساد وساءت الأخلاق (٣) إنهم لم يتمشوا مع روح العصر وما زالوا محافظين على بعض التقاليد

التي لم يفرضها الدين.ويلزم بها العقل والعرف (٤) إنهم مشتتون لم تجتمع كلمتهم على ما فيه صلاحهم وصلاح أمتهم.

أما الملاحظة الأولى:

فإن من البواعث عليها احترام المتقدم والجرأة على المعاصر المتأخر فقد جرت العادة على إكبار كل قديم حتى قيل لو تقدم هذا الشاعر لكان أشعر الناس ولو تقدم فلان على حاتم لكان أكرم منه، وأي منطق في هذا القول! ومن أي أنواع الحجة هو! نحن لا ننكر عظمة العلماء المتقدمين الذين أدّوا للدين والعلم أجل الخدمات ولكنا نقول إن الزمان تأتى لهم وساعدتهم الظروف فإن علم الدين كان على عهدهم يحتل المكان الأسمى. فلم يكن غيره معروفاً، وهم أساتذته ومدرسوه أما المدارس فبيوتهم المتواضعة والمقاعد الحصر البالية وكل شيء من لوازم العلم وأداة الدرس لا يفتقر إلى مال وعناء. أترى لو أنشأ إنسان اليوم جامعة تخرج رجالا في الطب والهندسة والحقوق مجاناً في بلاد كجبل عامل الذي هو قحط من كل شيء! ما يكون له من العظمة والاجلال وفي عصر العلماء الأعلام كانت العلوم الدينية أجل وأعظم من هذه التي أصبحت المقصد الأسمى والمثل

الأعلى في هذه الأيام وأهل الجدارة والنبوغ يحتاجون إلى الظروف الملائمة لإظهار مواهبهم وملكاتهم كما يحتاج استغلالها واغتنام الفرصة إلى عبقريتهم، وشرط المقارنة بين عاملين من نوع واحد أن تتهيأ لكل منهما الأسباب المعدة على السواء وإلا كانت من قبيل المقارنة بين المتناقضات والاضداد.

أما الاعتراض الثاني:

وهو إهمالهم الإرشاد والتعليم فالذي شاهدته ان منهم من يعظ ويعلم حسب معرفته ومقدرته نعم هناك أفراد لا يحسنون طريقة الإرشاد فإذا تكلموا كانوا موضع النقد والاستخفاف، فتأتي النتيجة معكوسة، ويتولد هذا من عدم الذوق والجهل بعلم النفس ومزاياها وأسرارها. والذي أدركته بالتجربة والوجدان. ان رجال الدين في أمس الحاجة إلى أمرين جديرين بالعناية والاهتمام (الأول) تاريخ الأديان وتطورها كما يحتاج الأديب إلى معرفة تاريخ الأدب وما تنتجه قرائح الأدباء في كل عصر، وبذلك يستعينون على معرفة خصائص الدين وأسرار احكامه (الثاني) علم النفس وبه يدركون اتجاه النفوس وانفعالاتها وبواعث إحجامها وإقدامها فيكون لكلامهم الأثر البالغ والموقع المنتج، فحفظ الفروع

والأحكام غير استنتاجها من الأصول والمدارك وإلقاء الأوامر والنواهي غير اطاعتها والعمل على مقتضاها، يفعل الانسان القبائح ويعصي الله عز وجل فإذا أردنا أن نصرفه عن ضلاله ونحمله على التوبة والإنابة فعلينا أن نبحث عن الدافع له على المعصية فإذا كانت العاطفة كما هو الأغلب لأن الانسان ينقاد اليها أكثر مما ينقاد لمنطق الدين والعقل، لأن أغلب أفعالنا التي تحدث في أثناء حياتنا اليومية مسببة عنها فيجب والحالة هذه أن نأتيه عن طريق العاطفة فمن الخطأ ارشاده بالدين والعقل لأن اللاشعور لا يتقوم بالشعور، والعاطفة لا تهزمها إلا عاطفة أشد منها وأقوى (وكل شيء ضده من جنسه).

ومهما كان الأمر فإن لنوع العلماء فضلا لا سبيل لمنكر أن ينكره وجاحد أن يجحدهم اياه بعد أن أصبح كوضح النهار. وهو ما تقصدهم الناس لأجله من القضاء وفصل الخصومات في الدعاوى الحقوقية ولو أحصيناها عداً ثم نسبناها إلى الدعاوى من نوعها في المحاكم ازادت أضعافاً، هذا من حيث الكم أما من جهة الكيف فهناك الطامة الكبرى حيث يطول في المحكمة النظر والتأجيل وتتعدد الجلسات وتمتد أشهراً وسنوات وتقوى الخصومة والبغضاء

وينتشر الفساد والأحزاب ويعيش المنافقون الذين لا يحيون إلا بالقذرات كالجعل والديدان ولا يشبعون إلا إذا كثرت الجيف والأموات كالكلاب والذئاب، بينا ترى العالم يصلح بين المتخاصمين ويرضي كلا الطرفين في أوجز مدة من دون خسارة ومشقة لا يسأل جزاء ولا شكورا.

هذا هو السر في عداء المفسدين لأهل الدين والعلم الذين لا ذنب لهم إلا الإصلاح وقمع جرثومة الفساد الذي يدر على المفسد الارزاق ويخضع له الفلاح المسكين المجهول طمعا في نصرته على خصمه وإن للمنافقين تفننا في طرق الفتنة والتدجيل ما يثير الحيرة والدهشة، فهم يظهرون لكل واحد من المتداعين انهم عون له على عدوه ويكيلون الشتم والقذف لمن غاب أمام الحاضر رغبة في خضوعه وخدمته وطمعاً بماله وهديته، اعتاد هؤلاء في عهد الاتراك على الظلم والاستبداد والتعدي على الأعراض والأموال ولما ذهب الترك وثارت على أولئك البلاد وغلت أيديهم الحكومة أخذوا يبثون الفتن ويوجدون الأحزاب ارضاء لشهوتهم وغريزتهم الشريرة وتم لهم ما أرادوا فعمت الاحزاب جميع القرى العاملية وكنت تجد في أصغر بلدة حزبين أو أكثر (يموحل) هذا للأفندي (ويعتب) ذاك للبك فذهبت من جرائها

الأموال والنفوس وقلدهم الجهلة والسفلة والمحاكاة غريزة في الحيوان فضلاً عن الإنسان ينبح كلب فتجاوبه كلاب وينهق حمار فتزعجك أصوات الحمير المنكرة بدون أن تعرف السبب، فالعلماء يصلحون وهؤلاء يفسدون ـ وألف بان لا يقوم بهادم ـ

أما انهم لم يتمشوا مع روح العصر فهناك أصل الداء القاتل وكيف نستطيع أن نماشي العصر الذي نعيش فيه ولم نتنازل عن أدنى شيء من التقاليد القديمة التي لن نبرح عليها عاكفين حتى اليوم، إن عصرنا عصر تطور عام تناولت آثاره كل شيء فإذا أردنا أن نحفظ التوازن فمن المستحيل أن نبقى محافظين على كل شيء وإلا كنا مخلوقاً غريباً لا يشبهه شيء، نحن كما كنا منذ الف عام لم نغير منهاج التعليم ولم نضف إلى علمنا علما يلائم حياتنا الجديدة ولم تعمل ولاة الأمر بوصية الإمام علي (ع) (علموا أولادكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم) أخذوا بظاهر اللفظ وأهملوا حقيقة المعنى فليس المطلوب مطلق العلم بل الذي يسير مع مقتضيات الزمن كما يشعر به التعليل فإن علة الحكم قيد في الموضوع، فالحكيم الرشيد هو الذي يوجه نفسه توجيهاً صحيحاً معتدلا ويوفق بين ما تجب المحافظة عليه من الدين والأخلاق وما تفرضه الحياة الاجتماعية الجديدة فيجعل

الدين أساسا يبني عليه كل ما تستدعيه الظروف والأحوال والإنسان يقاس بمقدار ما في طبيعته من الاستعداد لقبول الارتقاء والتطور ولو بقي ثابتاً على كل قديم ولا يتناوبه التغير لكان جماداً، تطورت الحياة وجمدنا، وتكلم العصر وخرسنا، ومن هنا أتت الضربة القاتلة.

ولندع العلم ومنهاج التعليم وننظر إلى العادات والتقاليد التي لا مساس لها بالدين وما زال البعض بها محتفظاً وعليها حريصاً، لا يسوغ للعالم أن يمشي في الأسواق ويقف على التاجر والقصاب لقضاء حاجته ويكره المشي مع لابس القبعة ومكشوف الرأس والخروج للنزهة وشم النسيم ويجب عليه إذا كان بين جماعة أن يجلس خاشعاً وقوراً كما يجلس في محرابه للصلاة وأن لا يضحك ولا يهتز للنكتة مهما كانت. . . وإذا أخل بشيء من ذلك فقد خان العهد والميثاق ونقض شرط الجلالة والوقار، قلنا أن حركة الانقلاب الفكري تناولت كل شيء ولم تختصر على علم الفلك والجغرافيا بل شملت الأخلاق والآداب وغيرت النظم الاجتماعية والعادات الوراثية، كانت الملوك والأمراء والوزراء تعامل معاملة الآلهة والأرباب يبقى أحدهم في قصره لا يخرج منه وان خرج وقفت الأمة والجنود صفوفا

يهللون ويكبرون ويركعون ويسجدون، ويحدثنا اليوم الذين يسافرون إلى الغرب أنهم شاهدوا ملك الانجليز وهم أشد الناس محافظة على التقاليد وملك البلجيك وملك الدنمرك ورئيس جمهورية تشكوسلوفاكيا وغيرهم من أعاظم الرجال وأرباب المناصب يقودون السيارات والدارجات بأنفسهم ويترددون على المطاعم والمقاهي ودور السينما وأماكن النزهة كأي فرد من الناس لا يستوقف دخولهم نظر أحد الموجودين.

إن العالم والفيلسوف والسياسي والأديب والواعظ يجب أن يتصل بجميع طبقات الشعب اتصالا وثيقاً ويحيط بأحوالها مباشرة ويسير حسب التطور مع المحافظة التامة على الدين الحنيف وسنن الشريعة المقدسة ليتمكن من القيام بواجبه على الوجه الأكمل.

الرابع:

إن علماء عامل مشتتون لم تجتمع كلمتهم على أمرٍ ما، هذه حقيقة يشعر بها كل فرد من العلماء ويدركها الكبير والصغير، نعم نحن غير متباغضين ولا متشاحنين، ولكنا غير مجتمعين ولا متضافرين على عمل يعود علينا خيره ونفعه، فحالتنا اشبه بحالة الاحتضار، وإذا أردنا أن نخدع

أنفسنا عن الحقائق يجب أن نقول: إنا لا نصلح للحياة، فإن القوم الذين يوجد بينهم التجانس التام وتجمعهم وحدة الدين والثقافة والهدف والمظهر والملبس، ثم لا تتضافر قواهم ولا يكونون يداً واحدة تعمل لحياتهم لا يصلحون للحياة. وليس بكافٍ أن يستقل كل منا بحياته ومعيشته الخاصة غير محتاج فيها إلى غيره، فمن لم يرد العمل لا يفتقر إلى الغير، ومن اراده للدين والدنيا فهو في أشد الحاجة إلى سواه، فدول أوربا وامريكا لم يحتج بعضها بعضا ايام السلم وهي في الحرب احوج ما يكون إلى الاتحاد، والتساؤل: هل يمكننا ان نعمل اولا. هو بمثابة التساؤل: هل نحن أحياء أولاً. ومن الذي يستطيع العمل غير العالم الصالح والمؤمن الصادق. إن العظيم لا يطيق القعود، ولا يسأل ماذا يصنع، بل يفكر وهو في أشد الحرج والضيق بصلاح نفسه وأمته... لقد واجهنا من التحدي ما لم نسبق له بمثيل، وشهدنا من الألم ما لا ألم بعده، فعلينا أن نقوم بجهود لم نأت بمثلها من قبل، فإن السكوت ضرب من الانتحار، واليأس عجز وجهل نهى عنه الشرع والعقل. لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة، والنجاح قرين العمل المنبعث عن إحكام الرأي ومضاء العزم والثقة بالنفس وتبادلها مع الغير.

قرأت في بعض المجلات أن في بلاد الصين لكل طبقة من

الناس نقابة حتى المتسولين، فهل نحن أقل تفكيرا واستعداداً من هؤلاء؟. ويخطىء من يعلل تفكيك العلماء بأن كل واحد منهم مصر أنه فوق الجميع، وانه أمة وحده لا يدانيه أحد، ولا يبلغ علمه عالم. كما يخطىء من يقول ان العلماء جميعاً متحزبون مع الزعماء المتطاحنين، فهذا يؤيد ذا وآخر يناصر ذاك. وإذا صدق هذا القول على البعض فإنه جور محض لو أريد منه العموم. فمنا من يعترف للفاضل بفضله، ويقدس العالم الكبير صاحب الأهلية والمكانة الاجتماعية، ويرى أن احترام الدين باحترامه وحفظ الشريعة بحفظه، وان الراد عليه راد على الله سبحانه بحكم الدين وضرورة المذهب. ومنا من لا يعرف زعيماً ولم يدخل له بيتاً ولا يود أن يعرف للمتزعمين وجهاً ويسمع منهم قولا، وينعى عليهم تضليلهم للعباد وفسادهم في البلاد، لقد أبدى زعماء جبل عامل نشاطاً غريباً في هذه الأيام التي يعاني فيها الناس ويلات الحرب وآلامها، فأشعلوا نار الفتن وتذرعوا بشتى وسائل الهدم والتخريب، وأتوا بما يخجل وجه الإنسانية، ويصدع الصخر الأصم وجمعوا حولهم اللصوص وقطاع الطريق والرعاع المشاغبين الذين يصفقون لجرائم الزعماء ويتأهبون لتدنيس المجتمعات فاقترفوا المظالم ملبين نداء كل ظالم فكثر الهول والتهويش وعمت الفوضى

وانتهكت حرمة الدين والاخلاق إن هؤلاء الأوباش لا تردعهم الزواجر الاجتماعية أيام الهدوء والأمان فكيف في ساعة الهرج والهيجان حيث يملكهم الحقد والزهو والحماسة وتظهر غرائزهم الوحشية، إن الأمة العاملية فقيرة بائسة منكوبة جاهلة ليس لديها تجارة ولا صناعة فكان الأولى بوكلائها أن ينهضوا بها وينشلوها من هوة الفقر والجهل ويعملوا على إحيائها في مثل هذا الظرف الذي تغتنم فيه الفرص وتجتهد الأمم اليوم لتحيى حياة طيبة في الغد وتعد العدة للراحة والسلام، لست أدري أحب الفساد خلق متأصل في المترعمين؟؟ وإلا فأين الرحمة وعاطفة الشفقة؟؟ ام هم يشعرون أنهم لا يستطيعون حفظ مناصبهم إلا بالفساد، وسيأتي يوم تقتص فيه الأمة منهم وتجمع كلمتها على مطاردتهم والتنكيل بهم سنة الله تعالى في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ومن الغريب أن ينظر بعض المتعممين إلى هؤلاء بعين الرضا وان يوقفوا انفسهم لإرضائهم ويستخدموا مواهبهم لاستخراج اعجابهم وينصبوا انفسهم كالمغني مع الناس الذي لا همّ له إلا عطف المستمعين وإن كره العلم والوجدان وسخط الدين والديان، وإن من البدعة والضلال ان يستحل المتسم بسمة أهل العلم تشجيعهم على ظلمهم

فيصحح اغلاطهم ويحسن مساويهم ويحملهم على الاعتقاد انهم اكبر الحياة وانهم كل شيء وفوق كل إنسان يرفعون من يشاؤون ويضعون من يريدون، هذه هي علة العلل التي سلبتنا التراث الثمين والعدة القويمة ثقة الناس وتقديرهم لأهل الدين فإن من البدعة والضلال ان يستحل المتسم بسمة أهل العلم وتشجيعهم على ظلمهم فيصحح أغلاطهم ويحسن مساويهم ويحملهم على الاعتقاد انهم اكبر الحياة وانهم كل شيء وفوق كل إنسان يرفعون من يشاؤون ويضعون من يريدون، هذه هي علة العلل التي سلبتنا التراث الثمين والعدة القويمة ثقة الناس وتقديرهم لأهل الدين فإن قياس النوع على الفرد المنطق الوحيد للجموع والمقياس الصحيح عندهم، وكيف يسوغ لمن ينتسب إلى العلم والدين أن يركن إلى الزعماء وهم السبب الأكبر في تمزيق ـ جمعية العلماء ـ والمعول الذي هدم المعهد العلمي بعد أن تهيأت اسبابه وتمت جميع ادواته التمهيدية، ومن عهده ذهبت هيبة الهيئة العلمية ولم يبق ما كان لها من الأثر والوثوق.

حاولنا ان نستدرك الأمر ونسترجع بعض ما فات فاجتمعنا في العام الماضي عدة مرات. وعزمنا على تأليف

جمعية تجمع شتات العلماء وتوحد كلمتهم على خيرهم وخير أمتهم. فرأينا العزم والنشاط والاخلاص عند من خصه الله سبحانه بنور العلم والايمان وتحلت نفسه بالفضيلة ومكارم الاخلاق وحافظ على حقوق اخوانه وجلسائه فتواضع للصغير واحترم الكبير، ورأينا الفتور والتردد عند من رفع نفسه فوق مرتبتها وصعد بها إلى حيث اللانهاية - ودائماً نرى الترفع عند الوضيع والتواضع عند الرفيع - جارينا هؤلاء حسب رغباتهم واحترمناهم إرضاء لشهواتهم وتنزلنا عن حقوقنا مغتبطين طمعا بالصالح العام وحصول الغرض المنشود الذي اليه تطمح نفوسنا ونضحي لأجله بحياتنا، ولكن هل بلغنا الغاية وحصلنا على المرغوب كلا فتارة يتذرعون بالخوف من الفشل وهذا هو الفشل بعينه وحيناً يتذرعون بالعجز المادي، وهذا حق لا سبيل إلى جحوده ولا ندحة عن الاعتراف به فإن المواصلات مفقودة في جبل عامل برغم تضخم عدد النواب الذين بلغ تضخمهم ما يبلغه ورق النقد ايام الحرب، وحصر النواب مال الأمة في طريق خاص تعرفه ارباب العقول والافهام.

فكل ثلاثة او اربعة من العلماء لا يصلهم في العام من مال الأمة ما يتناوله حارس أو موظف بريد، ومنهم من يعمل كما يعمل سائر الناس فهل فهم ذلك المتحذلقون؟

ومن المعلوم انه لا يكفي لإحياء المبادىء المقدسة ان نجتمع مرة أو مرتين بل يجب أن تتضافر الجهود لأعوام وأعوام وهذا يستتبع العسر والحرج على الكثيرين، بيد أن الضرورة الملحة تفرض علينا التضحية بالعزيز الغالي والنشاط المتواصل. فإن الأهم مقدم على المهم والأصلح هو الذي يجب أن يبقى، واين التضحية وهل تكون تضحية بدون شجاعة ولا شجاعة بغير صبر ولا يوجد صبر بغير إخلاص وايمان (لا يسأم الإنسان من دعاء الخير).

جبل عَامل والشباب

﴿إن يكن منكم عشرون﴾
﴿صابرون يغلبوا مائتين وإن﴾
﴿يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً﴾
(قرآن كريم)



جبل عامل والشباب

الشباب مادة الحياة، واداة التطور، وثروة الشعب، فعليهم تعلق الآمال، ومنهم تنبعث الأفكار، وبهم تتقدم الأمم، ولست اعني بالشباب من حمل المدية والمسدس، واتقن فن التطبيل والتزمير وانا اريد الشباب المتعلم الذي ادرك كثيراً من الواجبات، وميز بين الأفراد والطبقات، فعرف الأصيل من الدخيل، والعالم من الجاهل، والمصلح من الخائن، ثم نزّل كل انسان في منزلته ووضعه في مرتبته.

لقد شق هؤلاء الشباب طريقا جديداً نحو التقدم فسايروا الحياة الاجتماعية، واتجهوا بالأفكار الى حيث الآداب الحديثة والعلوم المدنية، وصرفوها عن بعض أحاديث الخرافات والاباطيل كقيام الأرض على قرن الثور، وان مساحة عوج بن عنق تبلغ عشرة الآف متر طولاً والف عرضاً.

أثر الشباب في الأدب العاملي.

اخص كلامي عن الادب العاملي قبل ان ينشأ الشباب المثقف كما استثني من احكامي الآتية افراداً لا يتجاوزون عدد اصابع الكف فإنهم من الشيوخ الذين لهم مكانتهم العلمية والأدبية، واذا استثنينا هؤلاء الشيوخ فلا يسوغ القول: إنه كان قبل ربع قرن شيء في جبل عامل يسمى ادبا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة.

كان مشائخ الحنطة والشعير يلفقون ابياتاً تتضمن الفاظ الكرم والشجاعة، يقصدون بها احد الأغنياء او الوجهاء الذين كانوا يلتزمون الاعشار في عهد الاتراك فيثيبهم بحذاء عتيق او قباء بالي او قليل من القوت ـ على سبيل مانعة الجمع ـ وربما يعجز الشيخ عن النظم وتخونه القريحة فيغزو المستطرف او كشكول البهائي فيسرق منه ابياتا ينسبها اليه ويمدح بها (الافندي) اتكالا على جهله وعدم معرفته، وقد كان الكشكول والمستطرف الثروة الوحيدة للأديب العاملي، فإذا قرأ الشيخ شيئاً من نظمه او نقل نادرة منها قوبل باعجاب لم يحلم به أكبر أديب في هذا العهد، وما زال (المتأفند) الخرافي يردد القول، ذهبت تلك الأيام التي كانت غنية بالشعراء والعلماء والأدباء، وهو إذ يقول ذلك يبكي

على أيامه الأول التي عاث فيها فسادا وطغيانا ويندب ماضيه الذي استعبد فيه الأحرار وسلب الأموال وهتك الأعراض.

إن اولئك المشائخ الفقهاء كانوا هم الخطباء والشعراء في حفلات التأبين والأحزان، والأفراح والأعياد، يذكرون في قصائد التعازي عظيم الأجر على جميل الصبر، وفي التهاني أضاءت الشمس وأنير القمر، والمستمعون يعجبون فيستحسنون ويستعيدون، هذا هو الأدب العاملي قبل ربع قرن حاشا الشيوخ الذين لهم الأثر الأكبر في نهضة الشباب.

أما اليوم بعد أن تخرج الشباب من مدارسهم، وزجوا بأنفسهم في غمرات الحياة، وفتحوا عيونهم على المدنية الحديثة المدهشة التي فرضت نفسها على الأحياء والجمادات وأحاطت بالعالم من جميع أقطاره ونواحيه فقد تبدلت الحال وانقلب الوضع رأساً على عقب، فسكت الفقهاء سكوت الأموات، ودخل الأدب في طوره الجديد لما تكلم الشباب في المحافل والصحف، وبحثوا في خطبهم ومقالاتهم المشكلات الخلقية والاجتماعية، وارتكز الأدب على مبدأ خاص هو التعبير عن آلام الأمة وأشجانها، وسار الى غاية معينة هي السير بها في طريق الرقي والتقدم، وكان لمجلة العرفان فضل السبق في هذا المضمار، فبعث في الشباب روح اليقظة

والنشاط وأنارت أفكارهم ونشرت آثارهم ومهدت لهم السبل والعقبات ومضت بهم قدما نحو الرقي والتجديد.

اما العلوم الحديثة فقد تخرج من الشباب كثير من دار المعلمين وبلغوا في التعليم درجة البكالوريا ونال قليل منهم شهادة الحقوق والطب والهندسة ولا يمضي إلا قليل حتى يصبح لدينا فيلق جرار من المحامين والأطباء.

يقف أثر الشباب عند هذا الحد، وتقتصر جهودهم عند ميدان الأدب فحسب، أما النواحي الأخر التي هي أجدى وأهم من كل ذلك فليس لهم فيها أدنى تأثير، هذا الفلاح العاملي ما زال منذ مئات السنين يعاني الم الجوع والعطش والجهل والمرض، وهذا النائب يمزق البلاد ويبني كيانه على اشلائها، وهذه الحكومة لا يعنيها من أمر العامليين قليل ولا كثير إلا جباية الضرائب وتنظيم محاضر المخالفات الصحية وغيرها، اما لفظ الصناعة فهو عند العامليين من اللغات الاجنبية التي لا يفهمون لها معنى، يعاني جبل عامل هذه الازمات كلها، ومرت به أخطار هددته بالخراب والدمار، هذا والشباب في معزل عن ذلك، يتحدثون وينتقدون وييأسون وهم سائرون في الشوارع للنزهة، وجالسون على كراسي المقهى للترويح عن النفس، فلم يوحدوا صفوفهم، ولم يرفعوا اصواتهم وإذا اجتمع العلماء واخفقوا فإن الشباب لم يجتمعوا للنظر وتبادل الرأي - في أدنى المراتب - إن تبعة هذه المعضلات لم تلق على العلماء فحسب، فالمسؤولية تقع على الشباب الذين نالوا حظا وافراً من التهذيب والتثقيف قبل أن تقع على العلماء، فإن للشباب الثبات والوثبات، وفيهم القوة والشجاعة، وعندهم العزم والجرأة، ولكن مزقتهم الحزبية، وفككتهم المطامع وأودت بكرامتهم الأهواء.

جمعية الشباب العاملي

يجب أن يكون للشباب العامليين جمعية تجمع صفوفهم وتوحد كلمتهم مبدأها التعبير عن آلام العامليين وآمالهم، وغايتها السير بهم الى الأمام لا ترتبط بزعيم ولا نائب يستغلها لمنافعه الشخصية.

لقد تشتت شبابنا فرقاً وشيعاً، فريق في هذا الحزب وفريق في تلك المنظمة، وفريق هنا، وفريق هناك. إن هذه الأحزاب والمنظمات تعمل لغايات القائمين بها المشرفين على سيرها وحركاتها، فخيرها لبلاد غير بلادنا، ونفعها لقوم غير قومنا، وعن طريقها يتوصلون الى المناصب، وبها يعملون أعمالاً نجهلها كل الجهل لا نعرف منها كثيراً ولا قليلاً،

وإنما يتخذونها آلة لتحقيقها ووسيلة إلى الوصول إليها. إن شبابنا الذين دخلوا في هذه الأحزاب التي لا تمت إلى جبل عامل بصلة سوى صلة الفوضى والتفكك قد محوا أنفسهم من سفر الوجود ورضوا أن يكونوا آلة صماء مسخرة لأولي المطامع والأهواء. فخير لهم ولأمتهم أن ينضووا جميعاً تحت لواء واحد ويتعاونوا على خير الجبل وتقدمه.

أيها الشباب إن في كل جزء من أجزاء الكون قوة كامنة واستعداداً لو أضيف إليه ما يلائمه من الأجزاء لتكونت الطاقة والقوة الذرية، إن وضع جزء من أجزاء الطبيعة فوق الحديد يحوله إلى بخار ودخان، فلا تفرقكم الأحزاب العديدة المشتتة، هلموا إلى التآزر والتعاضد إلى تكاتف القوى هلموا إلى القيام بالواجب المقدس الذي فرضه العقل السليم والشرع القويم إلى عبادة الرحمن والجهاد لخير الأوطان.

ومن الأشياء الهامة التي يؤاخذ الشباب عليها تهاونهم في أمر الدين حتى ظن الناس بهم الظنون، وقد يراهم البعض أنهم يحقدون على الدين وأهله.

بماذا نفسر هذا التهاون وعدم المبالاة؟! أنفسره بأن الدين قديم وكل قديم جحيم وكل جديد نعيم؟ وأن الدين

لا يتمشى مع روح العصر الحديث عصر النور والمدنية؟ لو تلفظ جاهل بهذا القول ثم لم نرد على جوابه إلا أن عذره جهله لكان الجواب كافياً شافياً ولو كان له أدنى خبرة بأسرار الدين وغاياته لما نطق بكلمة الكفر، إن القدم والحدوث وصفان عارضان لا أثر لهما في قيمة الأشياء ووزنها، وإنما يقاس الشيء بمنافعه وآثاره ومقدار الحاجة إليه، فضوء الشمس قديم ولكن لا غنى للحياة عنها، والماء متقدم في الوجود إلا أنه سبب النمو والإنتاج، والدين ضرورة للطبيعة البشرية ما دام الإنسان إنساناً لا يسد مسده سواه، لقد نظر الدين إلى الحياة عامة لم يزل العالم المتمدن ينحني احتراماً لها.

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾.

الإيمان عند العامليين

لقد امتاز العامليون برسوخ العقيدة، وقوة الإيمان، والإخلاص للدين، ورعاية أصوله وفروعه، فما عرف عن

أمة في الأمة العاملية(1) في ثقافتها وفكرها أصيرتهت رجالًا فوقوا يوم القدين، وأعدُّوا بعلومهم الإسلام، وألفوا كتبًا في شتى فروع الثقافة الإسلامية، وانتشرت في كل زمان ومكان.

كان العامليون كبيرهم وصغيرهم فقيرهم وغنيهم يحافظون على كل ما عليه مسحة دينية يحافظون على أنفسهم وأولادهم، فإذا سافر العاملي من قرية الى قرية وجاء وقت الفريضة وهو في طريقه نزل عن دابته فأسبغ الوضوء، وصعد على مرتفع من الأرض، ورفع صوته بالأذان والتهليل والتكبير، ثم أدى الصلاة المكتوبة وهكذا يفعل الراعي والحراث والحصاد والحطاب يدع أحدهم عمله، ويقوم بين يدي ربه للصلاة خاشعاً متضرعاً، وربما ضاق وقت الفريضة والجو ماطر، ولا شيء في قربه يستظل به من الشتاء فيقف في الفضاء يؤدي الصلاة، والماء يهطل على ثيابه وبدنه.

أما الزكاة فكان الفلاح العاملي يفرز من غلاته سهم الفقير على البيدر وعند التصفية، فإذا وجد المستحق أعطاه إياه وإلا وضعه في مسجد القرية، ولم يُدخل منه الى بيته حبة واحدة، فإذا احتاج المستحق ذهب الى الجامع وأخذ ما يسد

(1) لا يقصد المعنى القومي لكلمة أمة انما يقصد اهال جبل عامل. الناشر

به حاجته بدون ناظر ورقيب، ومن طريف ما يروى أن بعض المحتاجين ذهب الى المسجد فلم يجد فيه إلا قليلًا من الحبوب ولما أخذها وذهب بها الى أهله رأى في طريقه شيخًا من جيرانه يقصد المسجد ليأخذ نصيبه من الزكاة، وعندما علم زميله بحاله قاسمه تلك البقية، وعاد كل واحد يحمل القوت الى أهله.

أما الزعماء فقد كانوا في ذلك العهد أشد الناس محافظة على الشعائر الدينية، يقيمون الصلاة، ولا يتهاونون بالصوم ومستحباته فيصلون خلف الإمام، ويجلسون في مجالس العلماء بأدب وخشوع مستمعين لإرشاد الخطباء وتقريع الواعظين، فتخشع قلوبهم وتدمع عيونهم وليس ببعيد أن تكون هذه الظاهرة الطيبة أثرًا من بركات الصحابي الجليل أبي ذر الذي كان تشيع العامليين على يده وبسببه.

لقد عُرف العامليون بالتقوى والورع حتى اشتهر عن أحد المراجع في النجف الأشرف أنه كان يقول: أن الأصل في كل عاملي العدالة، وأن الحق يثبت بشهادة عاملي واحد، ولا يثبت في غيره إلا بشهادة عدلين، وكان الميسورون يتسابقون في شهر الصيام الى دعوة العامليين الى تناول الطعام في بيوتهم للتبرك بهم والتقرب الى الله تعالى بالإحسان إليهم.

وكان في عهدي بقال فارسي يدعى عبد الحسين أبو زوده يستدين منه الطلاب العامليون الأرز والسمن وغيرهما مما يحتاجون إليه، ولا يكتب عنده شيئاً مما يأخذونه من حانوته، بل يوكل ذلك إلينا، ولدى الوفاء يؤمن بكل ما نقول ولا يراجعنا بشيء، ومن طريف ما حدث بينه وبين المرحوم الشيخ عبد الكريم، أن أخي كان يستدين منه، وإذا جاءته دراهم وفاه شطراً من دينه ويبقى الشطر الأكبر، فيظن المذكور أن الذي إستوفاه هو دينه بأجمعه، وإستمر الحال على هذا النحو سنيناً طوالاً حتى بلغ الدين ثلاثين ليرة عثمانية، ولما أراد أخي الرجوع الى بلاده وفاه القيمة المذكورة وأخبره بالحقيقة فأكبر هذه الظاهرة النادرة.

هكذا كان العامليون، وهكذا كانت ثقة الناس بهم، أما اليوم فقد جرفتهم المادة بتيارها، فطغت على عقولهم، وأعمت أبصارهم، وأودت بإيمانهم، لا يتناهون عن منكر، ولا يصدفون عن محرم، فهذي بعض القرى العاملية لا يذكر فيها أسم الله تعالى في ليل ولا نهار، ولا فرق عند أهلها بين رمضان وشوال، يتجاهرون بالإفطار، ويعلنون الفسق والفجور، وهذا الزعيم وكيل الأمة ومحل ثقتها يأكل ويشرب في شهر الصيام أمام البر والفاجر بلا خجل ولا وجل.

وهذه الأسر العريقة في الدين والعلم لم نجد فيها ناشئاً واحداً يثقف تثقيفاً دينياً، وتلك ثلة من خيرة الشباب العاملي قضوا في طلب العلم والدين سنوات طوالاً، وبعد أن إجتمعت لهم الشروط تحولوا عنه مغتبطين حين وجدوا فرصة للتحرر والإنطلاق، وهؤلاء العلماء وشيوخ العلماء يربون أبناءهم تربية مدنية لا دينية ـ ولم ذاك؟ ـ أليس علم الدين مثلاً أعلى للحياة الدينية والدنيوية؟ إذن كيف صرف علماؤنا الأبرار أبناءهم عنه الى غيره؟! أليس في ذلك آيات بينات على عدم الثقة بمصير العلم ورجال الدين؟!

أليس في ذلك نذير الخراب والدمار؟ وهذي حالتنا التي نحن فيها، والأدواء التي نعانيها تعين مآلنا بلا لبس وغموض، لقد ضحينا في سبيل العلم بجهود كبيرة، وتحملنا من أجله آلاماً مضنية، ولكن لم نصل بعد الى غرض محدود، وغاية معينة من حمل الناس على الشعور بعظمة الدين والعمل بموجب أحكامه المقدسة كما ينبغي، أين ذاك الطموح الفياض؟ أين تلك الأماني العذاب؟ أين هاتيك الآمال الطوال العراض؟ حين كنا نحمل الكتاب للدرس لا شيء اللهم سوى القلق والهوان، هذا يموت جوعاً ولا يشعر به إنسان، وذاك تتهجم السفهاء على كرامته فلا يجد ناصراً ولا معيناً، وآخر يتحزب كالعوام للبك والنائب ليأكل

الرغيف، فيا ضيعة الدين والمتدينين، ويا هوان العلم والعلماء، ويا للسخرية من الخمول والأوضاع.

إن سموم الفساد والتشكيك في العقيدة تسري في خبث وخفاء الى نفوس الناشئة كما تسري الأمراض الفاتكة في الأجسام الحية، وتلتهم نيرانها الحامية كل ما يقف في طريقها، هذا ونحن في سبات لا ينقطع إتصاله ولا ينتهي أمده..

إن السكوت عن الهدى الى الدين أشد خطراً من الدعاية الى الفساد التي أثرت أفاعيلها الخلابة في نفوس الناشئة، إن هذا الخطر يعتمد على سكوتنا كما يعتمد على وسائل إنتشار الضلال والأباطيل إن التبعة في ذلك لا تقع على العلم والدين، إن هذه الملمات الفادحة أثر من آثار الإهمال، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يجب أن نتجرد عن كل مسحة حزبية فننصح النائب والوجيه ونجابههما بكلمة الحق، ونرشد الأمة الى الدين، ونضحي بكل عزيز في سبيل الإسلام، وإلا فإن حكم التاريخ علينا سيكون قاسياً.

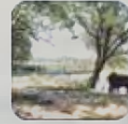
جبل عامل والمهاجرون

﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا ﴾
﴿ في سبيل الله والذين آووا ﴾
﴿ ونصروا أولئك هم المؤمنون ﴾
﴿ حقاً لهم مغفرة ورزق كريم ﴾
﴿ قرآن كريم ﴾

جبل عامل والمهاجرون

لست أعني بالمهاجرين كل من هاجر وتاجر واكتسب ووفر فإن وجود بعض هؤلاء، كعدمه ليس له أي أثر في أية ناحية من نواحي الحياة، وإنما أريد المهاجر المحسن الذي جاهد وضحى في سبيل أمته والسير بها الى الأمام.

لم تبن الحياة في جبل عامل على أسس إقتصادية قوية لا تتزعزع أركانها، لذلك كان مهدداً بالمجاعة في كل حين، فالصناعة كما قدمت من اللغات الأجنبية لا يفهم العامليون لها معنى، والتجارة منحصرة في سوق جويا النبطية وبنت جبيل، وأنشيء حديثاً سوق في العباسية وآخر في الغازية، ينعقد السوق في كل واحدة من هذه القرى في يوم معين من كل أسبوع يبتدىء من الصباح وينتهي عند الزوال هذا إذا كان الجو صافياً، وإذا وقع المطر فيع البائع والمشتري قرب الموقد وانتظرا الأسبوع القادم، أما الصادرات والواردات في



هذه الأسواق فإنه يأتيها من قرية الحولة ثلاثة أو أربعة أحمال من حصر البابير، وهذا العدد نفسه أحمال من الأباريق والجرار من راشيا الفخار، وبعض صناديق القثاء، والطماطم في فصل الصيف والفجل والبرتقال في فصل الشتاء، ويذبح فيها شيء من البقر والماعز أما بائعي الملابس المعبر عنهم في إصطلاح العامليين (بالخواجكية) فيأتي أحدهم ويمد كيسه الى جنب حائط ويخرج من خرجه بضاعته المؤلفة من قطع الخام والشيت والزفير ويرتب فوق بعض على هيئة الأحجار التي أسند ظهره وبضاعته إليها، أو يذهب الى الساحة العمومية المعدة للإجتماع فيطرح كيسه ويطرح عليه خرقة واضعاً طرف كل واحدة على طرف أخرى على هيئة الدرج وسلم الدار ليعرف المشتري نوع الألوان من النظرة الأولى، ويأتي القرويون من قراهم المجاورة للسوق فيشتروا أواقياً من اللحم وأذرعاً من الشيت وما الى ذلك من محتويات السوق كالحصر والأباريق، ثم يكرون راجعين الى عملهم، والسعيد من التجار من ربح خرج يومه من ثمن اللحم وتوابعه.

أما الزراعة في جبل عامل فلم يبذل أي مجهود في سبيل تقدمها وتحسينها بل على العكس فقد تأخرت تأخراً ذريعاً بعد ما عملت فرنسا على قتل الزراعة في لبنان بسبب إحتكار

التبغ فعطلت ألوفاً من العمال عن العمل، وألوفاً من المزارعين عن الإنتاج.

هذي هي التجارة وهذي هي الصناعة في جبل عامل، ماذا يصنع العاملي الطموح في بلاده؟ وقد سدت في وجهه مسالك العيش! ماذا يصنع العاملي النشيط الذي خلق ليعمل؟ وهو لا يرى مصنعاً في أرضه ولا إنتاجاً في حقله ولا مدرسة في قريته. ماذا يصنع العاملي الكامل بجسمه ومواهبه؟ إذا رأى الكماليات وأسباب الترف تزداد يوماً فيوماً وهو لا يستطيع الحصول على القوت الضروري في وطنه، إذن هو بين أمرين لا مناص له عن أحدهما إما أن يحيى حياة الهمجي المتوحش كما كان يعيش الإنسان في العصر الحيوانات، ويقتات من النبات والحشرات، وأما أن يلجأ الى الفرار وترك الديار، والموت أحب الى العاملي من عيش الذل والفقر، فآثر الإغتراب وقطع البحار وجاب أقصى القارات وأبعدها، فوصل الى أميركا وأفريقيا يقاسي ألم الغربة وألم الحر وألم المعشر وما إلى ذلك من المصائب والمتاعب.

إن هذه الكوارث التي أدت الى فرار العامليين من مساكنهم وهجرتهم الى بلاد لم يسمعوا بإسمها هم ولا

آباؤهم من قبل. قد أعطت للمهاجرين دروساً قاسية وأمثلة كانت لهم خير واعظ ونذير فزادتهم نشاطاً للكسب والتوفير، وأحيت الشعور الوطني في نفوسهم وخلقت فيها حافزاً قوياً لخدمة البلاد، فأخذت أموال المهاجرين تنهال على ذويهم وأرحامهم يسدون بها العجز الناشيء من كثرة الإستهلاك وعدم الإنتاج، وشيدت في بعض النواحي القصور والدور وابتيعت البساتين والمزارع.

رأى هذه الأريحية الفذة والشعور الحي المخلصون من رجالات البلاد فدب الأمل في نفوسهم بعدما كادت تحرقها زفرات اليأس، واستقر عزمهم - على ضوء هذا الأمل - أن ينشئوا مدارس للعلوم والمعارف ويحاربوا الجهل الذي هو علة العلل لأمراضنا السياسية والأقتصادية والخلقية، وبعثوا بندائهم الى المهاجرين فلبوا راغبين وسخوا بالنقود فتضافرت الجهود، أعمال المخلصين، وأموال المهاجرين، وتضاعفت على مدى الأيام حتى تحققت الآمال وأتت بنتائج لم تخطر في بال، فهذبت الناشئة، وثقفتهم تثقيفاً صحيحاً، ومهدت لهم السبل، وغرست في نفوسهم أصول الدين الحنيف والخلق الكريم.

الأهلية فقد بنوا المساجد، وناصروا الصحف العاملية، وأخذوا بيد العرفان التي هي أول من جاهد في الحقل الوطني والقومي فناضلت الفرنسيين ووقفت لهم بالمرصاد وتنزهت عن الأحزاب والأهواء، وما عرف عنها منذ أنشئت حتى اليوم إنها نطقت بغير ما تعتقده من الحق وما تدين به من خدمة الصالح العام، كما عملت على رفع مستوى التهذيب الفكري، وكانت لجبل عامل خيراً من زعمائه ونوابه وكثير من علمائه وشبابه، وما أن صدرت مجلة المعهد ورأوا ثمارها الطيبة اليانعة، وخدمتها في سبيل المعارف والآداب الحديثة، توجيهها القومي الصحيح، وتجردها عن الحزبية المحلية، وسيرها المتواصل تقطع المراحل بخطى سريعة الى الأمام، حتى أقبلوا عليها وآزروها، وتطوع فريق من خيرة المهاجرين للدعوة لها والتبشير بها.

ان هؤلاء المهاجرين المحسنين الذين لولاهم لكان جبل عامل بقية من بقايا القرون الخالية هم الذين تعترف لهم الأمة العاملية بالفضل والجميل، وتذكرهم بكل فخر، وتكرر أسماءهم بكل إعجاب.

أما المهاجر الذي لا يحس بوجوده أحد ولم يظهر له أي أثر في بلاده فهو عار وسبة على أمته، لقد رأينا أفراداً من هذا

النوع يعودون الى الوطن ومعهم ألوف الليرات والجنيهات يصل أحدهم الى قريته فيقبع في زاوية من زوايا الخمول والإهمال، لا يطعم رغيفاً لجائع ولا يبذل درهماً للمعارف ولا قرشاً في طريق المعروف والخير ولا يهتم بأمر من أمور أمته وبلاده، بل لا يعلم شيئاً مما يجري فيها من الحوادث وما تقاسيه من الكوارث فلا يحس بألمها ولا يشعر بمرضها وجوعها وعطشها، تزدريه أهل قريته وجيرانه وتمقته أرحامه وأقرباؤه يتمنون موته لبخله وخساسته، إن هذا الخسيس الوضيع موته خير من حياته وبعده خير من قربه وفقره خير من غناه.

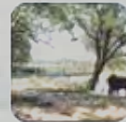
ورأينا الى جانب هذا المقتر الوضيع من المهاجرين المبذر المتلاف الذي يرمي بنقوده هنا وهناك من غير عد ولا حساب فينفقها على البذخ والترف والسكر والنساء والملاهي والطرق الغير المشروعة، فتذهب سدى وعلى غير جدوى، وخير من هذين ثالث عناه الله بقوله: ـ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ـ أنفق على نفسه وأهله بالمعروف، وبذل للمشاريع الحيوية في البلاد بما يرضي الرحمن ويعذر به إتجاه نفسه وأمته وإحتفظ بثروته ولم يكن من المبذرين وأخوان الشياطين.

وخلاصة ما قدمناه أن التبعة والمسؤولية لا تقع على

العلماء وحدهم أو الزعماء فحسب أو الشباب وبعض المهاجرين، فقد قصّر كثير من العلماء بإهمالهم إرشاد الأمة ونصيحة النواب، وقصّر النواب بإندفاعهم وراء منافعهم الشخصية، وقصّر الأغنياء وبعض المهاجرين حيث لم يسيروا بسيرة إخوانهم المحسنين، وإذا كانت التبعات تقع على هؤلاء جميعاً فمن الجور والشطط في الحكم أن نلوم فريقاً دون فريق، فإذا إنتقد شاب عالماً أو عالم مهاجراً أو أحدهم نائباً فقد صدق عليه قولنا:

ما زال أعورهم يزري بأحولهم
وعاب هذين شخص يفقد البصرا

زوجة الفلاح



زوجة الفلاح

(١) هل الزوجة شريكة الزوج
(٢) القرية اللبنانية!
(٣) مسكن الفلاح العاملي
(٤) الانسان الكادح
(٥) زوجة الفلاح
(٦) أين الحكومة؟!

هل الزوجة شريكة الزوج في حياته؟

ليس كل زوجة تشارك زوجها في أفكاره واعماله. ولا كل زوجة غريبة عن حياة زوجها وشؤونه، فزوجة السياسي عندنا ـ في الغالب ـ لا تعرف عن حياة زوجها شيئاً أو لا تعرف إلا القليل ماذا يكتب ويملي في نهاره؟ وبأي شيء يفكر في ليله؟ وما دبر! ودبر له؟ هي غريبة عن ذلك كله حيث لا يسكن اليها إلا لماما. والمائدة لا تجمع بينهما إلا بقدر ما تسمح له ظروفه ومتاعبه، وقريب منه الموظف غير أن الوقت ينتظم له اكثر مما ينتظم للوزير وانداد الوزير، وتجمع المائدة والسهرة بينه وبين زوجته. وقد يخبرها بما حدث معه أو مع

رئيسه وزميله ومما شاهد من النوادر المضحكة والمبكية بقصد السلوى أو العبرة أو العظة اما العالم والمحامي والصحفي والأديب فإن عاد احدهم من عمله إلى بيته غرق في كتابه او تاه مع قلمه يفكر ويقرأ ويكتب ذاهلا عن زوجته وأهله وأولاده بل عن نفسه أيضاً وهم منصرفون عنه إلى شؤونهم لا يسألونه عن شيء ولا يخبرهم هو بشيء. ويبكر التاجر إلى السوق يشتري ويبيع ويقبض ويصرف ويكذب ويخون ويقسم بالله وكتبه وأنبيائه وبشرفه وآبائه على صدقه وأمانته وقداسته وقناعته، وزوجته تجهل هذا كله ـ غالباً ـ فلا تدري ما باع واشترى وما قال وما قيل له. وقريب من هذا العامل ورب المهنة

إذن ليست كل واحدة من هذه الزوجات تشارك زوجها في حياته، إذ لم تكن الحياة عاطفة حيوانية وكفى. ان الحياة مشعبة الأطراف مختلفة الأنحاء والميادين، وشريكك في أمر من وقف حيالك آخذاً بطرف منه وآخذاً أنت بطرفه الآخر تسيران معاً في اتجاه واحد لا يقف حيث تسير ولا تسير حيث يقف، فمن الاسراف في الدعوى ان نحكم على كل زوجة انها شريكة الزوج في حياته الخاصة في أفكاره وأعماله.

أما المرأة الوحيدة التي تشارك زوجها في حياته كلها

الداخلية والخارجية، وتسير معه في أفكاره وعواطفه وأقواله وأفعاله، هي زوجة الفلاح دون سواها..

القرية اللبنانية!

يسكن الفلاح اللبناني وبوجه أخص (العاملي) في قريته الصغيرة المتواضعة التي تستطيع أن تعرف ما فيها من حرب أو سلم باصغاءة يسيرة، فان يك الصياح والضوضاء فثم الحرب وإن لم تسمع حساً ولا ركزاً فسلام وأمان.

أما غير السلام والحرب من حياة القرية فتعرفه من أول نظرة تلقيها على تلك الأكواخ المتلاصقة التي لا يشبهها شيء ولا تشبه شيئاً سوى القبور والأحجار المتراكمة، يتخللها ممر ضيق يتعرج ويلتوي ويصعد وينحدر، تكثر فيه الحفر الصغيرة التي تحدثها الأطفال ومياه الميازيب أيام الشتاء، مفروشة بالزوائد والفضلات على اختلاف أنواعها، عظام نخرة وخرق بالية وجلود ممزقة و (تنكات) رثة، تحيط بهذه المساكن أو المدافن على الصحيح دمنٌ تكدست عليها القذرات حتى اصبحت بمرور الزمن أرفع من الجدران وأعلى السطوح. أما بداية تاريخها فعند الأتراك العثمانيين حيث نشأت على

عهدهم، ودخلت في أطوار عديدة في الانتداب الفرنسي، وانتهت إلى أعلى المراتب في عهد الحكومة اللبنانية...

مسكن الفلاح العاملي

يسكن الفلاح وزوجته وأولاده وجميع ما لديه من البقر والحمير والجمال وما يحتاج إليه من أدوات الفلاحة وآلاتها ومن المؤنة والوقود والعلف!! يسكن وهذه جميعاً في مكان واحد مظلم قليل النوافذ كثير الحشرات كالفأر والصراصير والنمل والسوس والعفونة والرائحة الكريهة المتولدة منها ومن اختلاط أنفاس الإنسان بالحيوان وروثه وأبواله؛ فمسكن الفلاح في جبل عامل لا يقل قذارة عن الممر الذي يجتازه إليه ويفتح بابه عليه وعن حال القذرات المحيطة بالقرية من سائر جهاتها. يخرج من بيته السيء إلى الممر الأسوأ إلى ما هو أشد سوءاً من الإثنين ولولا الهواء الطيب النقي، والشمس المحرقة التي لا تحجبها الجدران وعلو البنيان، لوجد في القرية العاملية أمراضاً لا تعرف الأطباء لها اسماً وعلاجاً. ومع هذا فإن الأمراض تنتابها حيناً بعد حين فتفتك بالبقر والماعز والأغنام والدواجن وتكثر فيها الملاريا لمكان القذارات

والحفر التي هي أشبه بالمستنقعات يجمع الفلاح بها ماء الشتاء ليسد بها حاجته في فصل الصيف ويحتفظ بحياته وحياة مواشيه.

وصف مسافر هندي قرية من قرى انكلترا قال: « فإذا هي بيوت عليها مسحة النضارة ومظهر النظافة والوجاهة، فتنسقت صفوفها ورتبت هندستها. يحيط بكل دار حديقة صغيرة جميلة وسط أشجار وارفة وخضرة يانعة. طرقها ممهدة وسبلها معبدة قد امتدت إلى كثير من بيوتها أسلاك (التلفون) وحباها العلم بنور الكهرباء.. بها طبيب وفيها مدرسة ومكتبة. ومواصلتها سهلة ميسورة بالسيارات العمومية والسكك الحديدية».

الإنسان الكادح

يبكر الفلاح في فصل الشتاء إلى أرضه يسوق ثوره وبقرته وأتانه أو إثنين من هذه الثلاثة حسب يسره وعسره فإذا وصل إليها شرع يبذر الحب وقلبه مفعم بالآمال ونفسه واثقة بحسن العاقبة راضية بعمله وإن كان مضنياً وبما فيه من الرزق وإن كان قليلاً مبتدئاً قبل كل شيء باسم الله متوكلاً على الله تالياً قوله تعالى ـ أأنتم تزرعونه ام نحن الزارعون ـ ثم يضع النير على الفدان ويعلق به رأس العود ويقبض بإحدى يديه على (المساس) ويتكيء بالأخرى على الكابوس ثم يسمي ويخطو وراء فدانه ذاهباً إلى آخر القطعة عائداً إلى أولها وهكذا دواليك منتهياً ومعيداً فكل جزء من أرض الفلاح يمس جسمه في كل سنة عشرات المرات، تمضي الأيام تلو الأيام وعمله وحدة متماسكة لا تختلف حركة عن حركة.

هذا هو الاتكال على الله الذي تظهر فيه صور رائعة للايمان الصحيح ففيه الاقرار بوجود الله وفيه الانقياد والتسليم لامر الله وفيه الاذعان بقدرة الله وعظمته وفيه الايمان بكرمه ورحمته. هذا هو الاتكال الايجابي الصامت وهذا هو المتوكل الذي حسبه الله وكفيله، أما الذي يلوك بلسانه ألفاظ الذكر والتسبيح مائلا بعنقه يمنة ويسرة مناديا بملء فيه: ـ رب يسر ولا تعسر عليك توكلت وإليك أنيب ـ يقول هذا وهو سائر في طريقه إلى أبواب الاغنياء يقبل أعتابهم ويترامى على أقدامهم ليرموا اليه بلقيمات من فتات موائد الظلم والخيانة يدور في البلاد يجمع حفنة الحنطة والشعير. أما هذا فيبعد عن المتوكلين بعد الإيمان عن النفاق، فهو بالاتكالي أشبه، بل هو نفسه حسبه الشيطان

دون الرحمن لم يتكل على الله بل على كشكول (الكدية) وعلاة العلة قد اتخذ الدين وسيلة لكسله وخساسته وعذراً لاهماله وتسويفه. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها ويكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه).

زوجة الفلاح

يبكر الفلاح إلى عمله وتبكر زوجته إلى أشغالها البيتية واول ما تبدأ به كنس الأرواث والفضالة فتجمعها وتحملها على رأسها لتلقي بها خارج القرية وبالقرب منها تضعها في مكان خاص حتى إذا جاء فصل الخريف نقلتها مرة ثانية على اتان او على رأسها الى شجر التين والزيتون والكرمة. فإذا انتهت من عملية (الجلاء) غسلت يديها وباشرت باعداد الطعام ومتى فرغت منه اخذت ارغفة وإداما وكوزاً من الماء واسرعت الى زوجها، فيشرع هو بالطعام وتأخذ هي بالحديث تخبره عما حصل في القرية بعده وما سمعت ورأت من شجار وقع بين اثنين او لحام ذبح عنزاً او عجلا، او كاسب جاء يبيع الفخار أو الملابس أو الفاكهة والخضار، هذا وهو مصغ لحديثها بجميع حواسه مسروراً مغتبطا كأنه

يكشف سراً من اسرار الطبيعة. ويحدثها هو عمن مر عليه ورآه، وعن سهولة الأرض وصعوبتها، وكيف لاقى وبقره من العناء، وماذا بقي معه من البذر، ومتى ينتهي من قطعة هذه، وكم يرجو ان يكون نصيبه منها. ومتى عاد مساء الى بيته اعاد عليها وأعادت عليه يتبادلان الافكار والشعور فينفذ الى أعماق نفسها وتنفذ الى أعماق نفسه فتحس وتشعر بما يحس ويشعر وبالعكس لا يفوتها شيء مما عنده ولا يفوته شيء مما عندها. فإذا انتهى موسم الزرع وجاء الصيف بأوصابه وأتعابه حمل منجله للحصاد وشمرت هي تلتقط خلفه ما يفوته من السنابل وهي معه على البيدر وهو معها في خيمة التبن وفي كل زمان ومكان: في الليل والنهار في اليقظة والنوم في لحاف واحد على فراش واحد، وقد يتبادلان الملابس فتلبس ثوبه وحذاءه و(سترته) ويلبس قميصها ويحتزم بخمارها.

هذي هي الزوجة الوحيدة التي تشارك زوجها في حياته كلها ويشاركها الزوج في جميع حياتها لا يفرد عنها بقول وعمل وادراك وشعور وكل شأن من شؤون الحياة الروحية والمادية. وهذي هي المرأة الوحيدة ـ في بلادنا ـ التي تعمل وتنتج كالرجل وتتحمل آلام الحياة في سبيل العيش تعمل وتنتج لحياة النسل وحفظ النوع ولا تستهلك شيئاً يذكر

بالقياس إلى انتاجها وعملها، وكثيراً ما تقضي الفصول الأربعة في بذلة واحدة من (الشيت) الخفيف المتواضع، وربما بقيت أشهراً او سنة كاملة عارية القدمين فهي أشبه ما تكون بآلة ميكانيكية تنتج ولا تستهلك على العكس من المدنية التي تأتي على الأخضر واليابس وتستهلك كل شيء ولا تنتج شيئاً.

تنفق ما ينتجه زوجها بكد اليمين وعرق الجبين على الأحمر والأبيض لتباهي أترابها بمحاسنها وتغري الشباب بمفاتنها هذا وهي الآمرة الناهية لا يرد لها قول ولا يعصى لها أمر: وزوجة الفلاح المسكينة لا يرتفع السوط عن رأسها وبدنها!

إن هذه المشاركة بين الفلاح وزوجه ضربة لازمة بحكم الضرورة تفرضها حياة الفلاحة التي تفتقر إلى الكدح العنيف وتعدد الأيدي العاملة والاستمرار في العمل ليلا نهاراً، وعلى الرغم من هذه الجهود الجبارة، فإن الفلاح ما زال في ضيق من العيش لا يذوق طيب الطعام وسائغ الشراب، وقد يمر عليه حين لا يجد البلغة فيه، وربما استدان واضطره الوفاء إلى بيع ما يملك من أرض او عمار.

أين الحكومة

اما الحكومة فلا يعنيها أن تعلم شيئاً من هذا فإذا علمت لا يعنيها أن تعمل او تفكر بالعمل، إن الحكومة التي يهمها أمر الشعب تهيء للفلاح آلات الحرث التي تقلب بطن الأرض على ظهرها وتخرج ما فيها من صخور وجذور مضرة. وما زال الفلاح اللبناني يخمش أرضه بحديدة لم تزل منذ عهد ـ القداحة والصوانة ـ حين كان افره المراكب البعير، وأشهى الطعام سنامه وأحسن الوقود بعره.

ومتى فكرت الحكومة في صحة الفلاح التي هي أساس الاعمال ومصدر الانتاج؟!!

يموت الفلاح ومواشيه وكل ما يمت اليه بصلة، فإذا شكا إلى الحكومة وبكى أجابت ننظر وندرس.

تخصص الحكومات لجاناً من المتخصصين بالزراعة، تبحث عما تحويه الأرض المعدة للزرع من القوى والمواد، وما تفقده، وما يلائمها من الغرس والحبوب، وتسهل للمالك والزارع العمل بموجب ما توصلت اليه من النتائج التي تعود عليه وعلى الحكومة بالخيرات.

أما حكومتنا فترسل الى قرى الفلاحين الدرك الجشع

الجاهل يجمع لنفسه البيض والدجاج والعدس والشعير، وإلا نظم محاضر المخالفات.



من المحترم في قانون العداله

من المحترم في قانون العدالة؟

إن المساواة وعدم المفاضلة بين انسان وانسان إن كانت حقاً من جهة فإنها خطأ من جهات، أي ذي لبّ يقارن بين من هو ينبوع فياض؟ تستمد منه الأجيال ولا ينفذ ما فيه، وشعاع ساطع يهتدي به التائهون في مذاهب الحياة، ولا تقوى على اطفاء نوره مهمات الحوادث، أي ذي لبّ يقارن بين هذا؟ ومن لا يصلح لشيء سوى الطرح مع الفضلات والزوائد، وهل يقاس العضو السليم النافع بالسقيم المضر؟

ليس من احاط بالماضي وعلم اسرار الحاضر وما يقع في المستقبل كمن لا ينظر إلى ابعد من أنفه ولا يعلم موطىء قدمه.

إن الرجال الذين تحيا الانسانية بحياتهم، وبهم يرتفع مستواها عن كل ما في الوجود هم مجد الأمة، بهم تمثل عظمتها، وإذا اخرجناهم من كل جيل سقط مستواها العقلي سقوطا كبيراً، إلا ان الانسان مهما كان كبيراً في علمه، شريفا في نسبه، نابغا في مواهبه، غنيا في ماله، عاليا في منصبه، فإن الأمة لا تعترف له بشيء، ولا تدين له بحق ما



لم يقدم لها العدد لا تعود عليها بالنفع العام والخير الشامل

إن غريزة حب البقاء، وإرادة الحياة من أقوى غرائز الإنسان وأسبقها في تكوين شخصيته، فقد رافقته منذ أن كان نطفة في حياته، لم يعترض عليها الوهن ونصب، ولا تطرق إليها الضعف بتقدم السن، بل تزداد كلما ازدادت الحوادث والأيام من حوله قوة في ذلك بين الحكيم والسفيه، ولا بين الخبيث والطيب.

لكن إرادة الحياة تشتق الأعمال كبيرها وصغيرها بيد أن النزعة الذاتية تقضي الخضوع من يعمل على حياته بيد الدافع له القسمة النفس والشح، بما إلى ذلك ما يعود عليهم بالنفع.

هذا هو منطق الطبيعة التي لا تتبع العبقري الذي من شأنها الآن ما تتبع العظماء التكوينات كذلك، وأشد ضرراً.

إن العمل الصالح هو الذي يكون نصب عينيه أبعد من نصيب غيره وهذا هو منطق الدين أيضاً.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من لم يراع حقوق الناس فهو كالفاقد الحواس.

حكمة بالغة ألقاها الله على لسان نبيه الكريم، وبيان في غاية الطهارة فيه صورة الحقيقة على الفهماء: من لم يراع حقوق الناس فهو قطعة من لحم تفقد كل حاسة باطنية وظاهرية، فلا تتأمل بفكر ولا تشعر بقلب، ولا تبصر بعين، ولا تسمع بأذن، ولا تعبر بلسان، ولا تبطش بيد، ولا تنهض برجل، قطعة من لحم أنتن ريحها، وخبث طعمها، وساء منظرها.

وقال الإمام الكاظم (ع): إن لله عرشاً لا يسكن تحته إلا من أسدى لأخيه معروفاً أو نفّس عنه كربة أو أدخل على قلبه سروراً، وجدير بمن يسكن في ظل الرحمن أن يتربع على عرش السيادة والسلطان.

إن الباحث عن حقيقة الدين وأهدافه يرى أن الغاية الوحيدة منه هي معرفة وجه الله تعالى، لأن من عرف وجه خالقه آمن به وجعله نصب عينيه أنى توجه، لا يزيغ بصره عنه طرفة عين فما دونها، وإذا قلنا العمل لوجه الله لم نقصد بذلك ما يريده الفقهاء من البعد عن العجب والرياء والزهو والاختيال، وإنما نريد أن يكون العمل مطبوعاً بطابع الشمول والعموم لا يتخذ صفة خاصة تصرفه إلى وجهة دون وجهة، يفعل الخير للخير عرف الناس ذلك أم أنكروه.

هذا ما يقضي به منطق الطبيعة والدين وهو عدم الفرق

بين أفراد الانسان بل بينه وبين الحيوان، لا فرق بين الأشياء كافة وأنواعها وأصنافها بغير ما لها من النتائج والآثار وعلى الرغم من ذلك فإن العالم يطلب من امته المعونة والاحترام على قدر علمه ومعرفته والشباب المتعلم على قدر نهمه وطموحه، وابن الأسرة النبيلة على قدر شرفه في نسبه، والسياسي على قدر منصبه ومرتبته، والمثري على قدر ماله، ولابس الثوب الفاخر على قدر ثمنه، وتأبى الأمة الواعية أن تتمشى إلا على قانون الدين وسنة الطبيعة، فلا تمنح الثقة والتقدير لأحد إلا عن طريق النجاح الذي يصيبها بسببه إن الأمة الواعية تجنح بفطرتها إلى تحطيم الرؤوس التي تحاول الامتياز عنها بدون أن تكون وسيلة لخيرها وسعادتها.

ولو بحثنا عن سبب تأخر الأمم في مشارق الأرض ومغاربها لألفينا أن العامل الأول هو امتياز الفرد، واستئثاره بالسيادة على حساب أمته لا عن طريق عمله وجهوده.

لقد قدس العالم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وسيقدسه إلى قيام الساعة ورأى به من العظمة بقدر ما اسداه الى الانسانية من الرفعة والكمال ولكن هذه العظمة التي لا حد لها وتلك الخيرات التي لا نهاية لها، هل ميزته عن غيره في تأدية الحق؟ وجعلته حاكما على القانون لا محكوما

له، نجد الجواب عن هذا السؤال في سيرته الشريفة، في الأسبوع الذي اختاره الله اليه: خرج الى الناس فخطبهم قائلا: ايها الناس من شتمت عرضه فهذا عرضي، ومن ضربت ظهره فهذا ظهري، ومن أخذت ماله فهذا مالي، يا للعدالة والقداسة!! يا للعظمة والجلال!! صاحب القوة والسلطان يدعو البر والفاجر، والخبيث والطيب إلى الانتصاف منه، ويقف موقفا يفرض فيه نفسه وماله للقصاص، يريد سيد العظماء وخاتم الأنبياء بهذا الموقف ان يعطي درسا للجبابرة والملوك بأفعاله قبل أقواله: انه لا احد فوق القانون وان الأمير والحقير سواء في نظر العدالة، وانه لا فضل لإنسان على انسان إلا بالتقوى.

وفي هذه المنقبة النبوية وجدت معنى الحكمة المشهورة (العدل اساس الملك) ليس العدل ما تنسجه اباطيل السياسة على عقول الجهلاء، ولا حفظ مواد القانون وتطبيقها على مواردها، ولا كتابة هذه الحكمة بالخط الطويل العريض وتعليقها في المحاكم فوق رأس الحاكم، ان العادل من انصف الناس من نفسه، وحملها على تأدية الحق، لا من عدل بين متداعيين لا يمتان اليه بنسب او سبب، ان المقصود من هذه الحكمة قبل الناس جميعا هم الملوك والحكام، فاذا أرادوا ان يدوم لهم الملك فعليهم ان يعاملوا الناس بما

يعاملون به انفسهم.

(إن دولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة).



الفهرست